للمنزل السروي التقليدي باب واحد وربما بابان في حالات قليلة، مثل معظم البيوت في الجزيرة العربية، ويتفاوت اتساع الباب من منزل إلى آخر، ولكن لا يزيد طوله على ثلاثة أمتار، ولا يزيد عرضه عن مترين ونصف. أما الباب نفسه فيتكون من أصراف (جمع صِرْف) من خشب الطلح أو العرعر أو العتم أو النظار، وهي أكثر الأشجار التي تنبت محلياً قوة ومتانة، ويختار خشب الأبواب بعناية من تلك الأخشاب التي تمتاز باستقامتها عند نشرها بواسطة النجارين. وتمتاز الأصراف بسماكتها، فقد يبلغ سمكها في بعض الأحيان ٤سم. تثبت الأصراف إلى بعضها بواسطة قطع حديدية يصنعها الحدادون بعناية، وتسمى ليمة أو كوكب، وجمعها لِيَم، وتثبت هذه اللّيَم من الوجه الخارجي للباب وتمتد رؤوسها إلى الطرف الآخر.

أما من الجهة الداخلية للباب فتثبت الأصراف بأخشاب قوية على امتداد كل درفة إذا كان الباب من درفتين، وهذه الأخشاب تسمى عبارات (جمع عبارة أو عابر) وتثبت بمسامير غليظة تبدأ من الوجهة الخارجية للباب مخترقة الصرف نفسه وكذلك العبارة ثم تحنى رؤوسها من الداخل.

يرتكز الباب على قاعدة خشبية قوية من نوع خشب الباب، أي الطلح أو العرعر أو غيرهما من الأنواع التي سبق ذكرها، وتسمى هذه القاعدة السفلية المعقم، ويثبت على قاعدة علوية مشابهة وتسمى الردم. أما القاعدتان الجانبيتان للباب فتسميان الضوارير (جمع ضارورة)، وتثبت هذه الضوارير بعناية إلى البناء نفسه، وبإحداهما ثقوب غائرة تحتضن ضبة الباب إذا ما أغلق. وللباب ضبتان أو ثلاث، منها واحدة لإغلاق الباب من الخارج، وضبتان لإغلاقه من الداخل. وللباب مفتاح قد يكون مصنوعاً من حديد، وقد يكون مصنوعاً من خشب، وللمفتاح أسنان تسمى جلع (واحدتها جلعة).

يتفنن النجارون والحدادون في زخرفة الأبواب. وبعض الأبواب يصفح بصفائح حديدية على طول الباب زيادة في قوته ومتانته، كما هو الحال في باب قصر ابن مشيط الأثري في بلدته القديمه ذهبان. وفي كثير من الأحيان تطلى الأبواب بالقطران لمنحها شكلاً جمالياً من ناحية، وللحفاظ عليها من التآكل أو السوس من ناحية أخرى. ولذلك تجد أغلب الأبواب مطلية بهذه المادة السوداء، وهذا قبل شيوع الدهانات الحديثة (البويات)

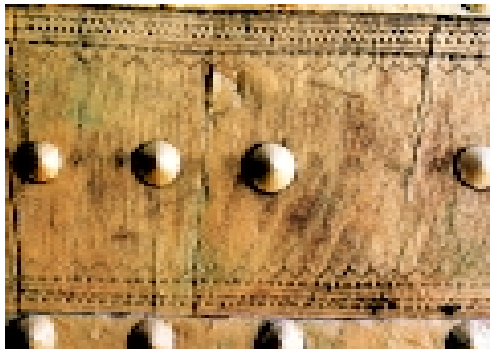

زخرفة الباب الخشبي بالحديد

التي أدت إلى إخفاء كثير من الـزخارف الجميلة على الأبواب والسقوف، وكذلك إخفاء ما كان مكتوباً على ألواح الأبواب وألواح السقوف من كتابات، خاصة تلك المكتوبة بالمداد. والكتابات على الأبواب دائماً مـحفورة حفراً عـلى الأخشاب، وتحمل آيات قرآنـية أو عبارة مقتبسة أو أدعية تنـقش على قطعة حـديدية تحيط بعكرة الباب أو أحد مقابضه، مثلما هو الحال على مدخل قـصر شدا في مدينة أبها.

التوزيع الداخلي للمـنزل. هناك شبه سمة مشتـركة تقريباً بين الأنواع الثلاثـة للمنزل التقليدي في السراة، فمساحة البناء صغيرة تتراوح ما بين ١٢م طولا و١٠-١٨م عرضاً. والدور الأول من غرفتين، ومدخل يسمـى في معظم بلاد قحطان وشهران بالسبق أو اللوية، ويسمى الطراد في بلاد بلّسمر، وربما يسمى كذلك في بقية رجال الحجر. وإذا كان المنزل يقتصر علـى دور واحد فواحدة مـن الغرفتـين مجلس وأخرى للنوم، وربما يقتطع منها جزء لحفظ الأمتعة. ويقع المطبخ (المسقف أو الملهب أو المواشي أو المعزب) في آخر السبق أو الطراد حيث يليه منعطف لدرج يصعد إلى سطح المنزل. ولهذا المنعطف سقف مـرتفع وباب واسع يـفضي إلى السطح فيترك مجالاً للدخان الـناتج من عملية الطبخ للصعود إلى أعلى، ومجالاً لدخول النور إلى ذلك الجزء من المنزل. وبين السبق والمسقف فتحة محاذية للسك (قاعدة البناء التي يلتف حولها الدرج إذا ما زيد البنـاء في المستقبل إلى أكثر مـن دور). في هذه الفتحة أو الفجوة توضع الرحى لطحن الحبوب. وعـندما يتكون البيت من دور واحد يـسمى بالسقيفة. وغالباً ما يكون صاحبه من قليلي الدخل ومحدودي الحيازة الزراعية. وتبنى غرف خارجة عن المنزل لحفظ الحـيوانات مثل الأغنام والأبقار.

وقد جرى العرف علـى أن للسكان محـدودي الدخل الحق فـي أن يأخذوا أخشاب منـازلهم من حمى القـبيلة أي الأرض الشجريـة ذات الملكية الجماعيـة حتى وإن كانت أشجـاراً خضراء محرم قطعها بموجب العرف، لأن إيجاد السكن

لكل مواطن مسؤولية جماعية. أما من تزيد منازلهم على دور فلا يحق لهم ذلك لأن ما زاد على دور يعد خارج دائرة الضرورة. وإذا كان البيت مكوناً من دورين، فإن الدور السفلي يستخدم لحفظ الحيوانات، وتسمى منازله الريش (جمع ريشة) وهي خالية من النوافذ، ويكون الدور الثاني مكاناً للسكن. ويتكون الدور الثاني في هذه الحالة من مجلس وغرفتين ومطبخ. وغالباً ما يتأثر تصميم المنزل بتوقعات صاحبه فيما يتعلق بالتوسع المستقبلي، فإذا كان سيقتصر على ثلاثة سقوف (أدوار) فإنه سيجعل مجلسه في الدور الثاني على امتداد مساحة البيت، ويجعل له نوافذ كبيرة نسبياً وسيكون هذا الدور مكوناً من مجلس كبير، وغرفة مجاورة له للمعيشة، وتسمى عشارية، وغرفة إضافية في السطوح تكون مسقفاً أي مطبخاً مؤقتاً. وفي هذه الحالة فإن الدور الثالث سيخصص لغرف النوم (وتسمى نوب، جمع نوبة، وأحياناً تسمى علِّيه) وللمطبخ أيضاً.

أما إذا أراد صاحب البيت أن يكون بيته من أربعة سقوف (أدوار) فإن الدور الثاني يخصص كله مخازن تقسم إلى أحواض أرضية وأخرى تبنى فوق الأحواض الأرضية بارتفاع ٥ , ١م تقريباً، وتسمى هذه الأحواض رفوفاً. وتخصص في معظم الأحيان لخزن الحبوب، خاصة الحنطة (البُر). ويكثر في هذا الدور النوافذ الصغيرة جداً، خاصة ما يطل منها على رفوف حفظ الحبوب العالية منها والمنخفضة، والقصد من ذلك تمرير أكبر قدر ممكن من التيار الهوائي لمنع تعفن الحبوب أو إصابتها بالتسوس. ولهذا الغرض أيضاً يخلطون طينة رملية ناعمة مع الحبوب، وهذه هي الوسائل التقليدية لخزن حبوب الحنطة. أما حبوب الذرة والشعير فإنهم لا يخزنون منها في هذه المخاويل إلا ما يستهلكونه خلال فترة ما بين موسم وآخر، والباقي وهي كميات كبيرة تخزن في مدافن تحت الأرض. وفي هذه الحالة يصبح الدور الثالث مخصصاً للجلوس، والدور الرابع لغرف النوم والمطبخ.

المجلس (الميلس) والغرف: المجلس هو أكبر غرف البيت، وله نوافذ كبيرة حسب معايير الكبر للبيت السروي التقليدي. وتطل نوافذه على جهات ثلاث، ويكون للضلع المستطيل النصيب الأكبر من هذه النوافذ. وغالباً ما يكون عددها أربعاً أو خمساً، ومطلة على جهة مزرعة صاحب المنزل، أما الجهتان الأخريان للمجلس المستطيل الشكل ففي

كل منهما نافذتان، وتسمى النوافذ كتر (جمع كترة) أو لهوي (جمع لهي، حسب لهجة سكان بلاد رفيدة قحطان وغيرهم من سكان المنطقة الذين يقلبون الجيم ياء)، أو لهوج (جمع لهج، كما هو في لهجة قبائل شهران). وإحدى هذه الكتر تنفرد بكبرها قياساً بالكتر الأخرى، وتسمى المطرف ويتخذ أكبر شخصية أثناء المناسبات مقعده من هذه النافذة. وفي الحالات العادية يتخذ رب الأسرة مقعده بالقرب منها، تمييزاً لمكانته بين أبنائه وعماله. والكتر أو النوافذ لا ترتفع أكثر من ارتفاع الشخص وهو جالس، حيث يمكنه أن يجلس ويرى كل شيء في الخارج، خاصة مراقبة مزرعته والدفاع عنها، وانشراحه برؤيتها.

وفي منطقة الباحة يسمون النوافذ بدايا (مفردها بداية) واشتق اسمها هذا من كون أنهم يبدون رؤوسهم منها عندما يريدون الاطلاع على شيء في حوش المنزل أو في جوانبه. أما الكترة أو (القترة) كما تسمى في منطقة الباحة فهي فتحات تهوية تكون على سطح المنزل بشكل دائري مرتفعة عن سطح المنزل بنحو ١٠سم، حتى لا تنزل المياه منها إلى داخل المنزل عند هطول الأمطار. وعادة ما تكون القترة أو الكترة في الأمكنة التي يستخدمونها مطبخاً، وهم لا يسمون المطبخ كذلك وإنما يسمونه المَشَبّ أي المكان الذي تشب فيه النار من أجل إعداد الطعام.

ويفضل أهل السراة أن تكون بيوتهم مرتفعة. تتوسطها مقدمة المجلس، وبالقرب من النافذة الكبيرة (المطرف) مكان إيقاد النار، ويسمى الصلل. وفي هذا الصلل تبقى النار متقدة تحيط بها الدلال الكبيرة والصغيرة. وفوق الصلل مباشرة في سقف المجلس كوة أو فتحة صغيرة لخروج العجاج أو الدخان، وتسمى الطاية، والمعروف أن الطاية في منطقة القصيم بوجه خاص هي السطح. ويحيط بأطراف المجلس من جوانبه الأربعة بناء من اللبن مرتفع بقدر ٤٠سم، ويسمى الدبب أو الدوابيب، جمع دابوب. وفي الزوايا (القرن، جمع قرنة) تبنى مساند من اللبن تسمى متاكي.

تسمى أرضية المجلس سرحة، وتسمى في بلاد رجال الحجر عرصه. تصهر (تدهن) السرحة بالجص الأبيض، ثم تخضر بأعواد البرسيم الطرية الخضراء فيتحول اللون الابيض إلى أخضر، ويسمى خضار. وتقوم سيدة البيت بصهر مجلسها بالجص الأبيض مرة كل أسبوع، وتخضره بالقضب مرتين في الأسبوع.

ويستخرج الجص من أماكن خاصة به في جبال معروفة، وكانت له تجارة رائجة. وتقوم باستخراج الجص والتجارة فيه نساء تخصصن في هذه المهنة. أما النوافذ فإنها تصنع عادةً بالطريقة التي تصنع بها الأبواب وتطلى بالقطران، وغالباً ما تكون النوافذ خالية من الشبك الحديدي الخارجي.

وتثبت بجدران المجلس أعداد كثيرة من الأعواد تسمى أوتاداً أو معاليق، مثبتة في الجدران متفاوتة في الارتفاع تستخدم لتعليق السلاح أو الرماح أوالملابس أو أغراض أخرى، ويعلق بها الضيوف أسلحتهم أو أمتعتهم الشخصية. وكذلك يوجد على طول الدرج من أسفل البيت إلى أعلاه معاليق أو أوتاد. كما يوجد بالجدران فتحات بعضها مستطيل وبعضها مثلث تسمى لقوف (جمع لقف) توضع بها الكتب أو المصاحف أو المسارج وهي غير مشعلة، أو بعض الأغراض التي يحتاج إليها في المجلس. كما يوجد في زوايا المجلس، في الأمكنة المرتفعة منها، رفوف تحفظ عليها الكتب وبعض الأغراض التي يجب أن تكون بعيدة عن متناول الأطفال. هذا بالإضافة إلى أخشاب بطول ٣٠ سم ومثلها في العرض، نصفها بارز والنصف الآخر مثبت في المدماك. وهي على ارتفاع قامة الرجل، توضع عليها المسارج في الليل للإضاءة. ومن المسارج ما يعلق في السقوف بواسطة سلسلة حديدية طويلة. ويصنع البعض للمسارج طاولات خشبية خاصة، ويتفنن النجارون في صناعتها، وتسمى جلاسْ (يلاس).

ويرتكز سقف المجلس على أربع خشبات كبار أو ثلاث، تسمى البتير (جمع بترة). وتمتد هذه الأخشاب من الجدار إلى الجدار أو من المدماك إلى المدماك في عرض المجلس، وتتعامد فوقها أخشاب أصغر منها حجماً، تسمى السهوم (جمع سهم). وهذه الأخشاب من الطلح أو الأثل أو العرعر، ثم يوضع فوق الأخيرة أعواد من الجراع، وهو أشبه بأعواد البامبو ويصف بإتقان ويربط بالحبال، ويوضع فوق الجراع نبات الخوص أو الحلفاء، ثم يوضع فوقه الطين أو الخلب. وفي بعض منازل الأغنياء يستعاض عن الجراع بألواح من العرعر أو الطلح أو الأثل مصنوعة بإتقان، ومصفوفة بعناية ومزخرفة بألوان مختلفة تخلطها النساء من نباتات مختلفة. ثم تقوم النساء أنفسهن بطلاء هذه الألواح في شكل رسومات هندسية جميلة. وأحياناً يقوم الكتبة بكتابة آيات من القرآن

أو أحاديث أو معلومات تتعلق بتاريخ البناء واسم صاحبه، واسم من عمل فيه. هذه المظاهر الجميلة اختفت بشيوع استعمال الدهانات، أي البويات الحديثة التي غطت على هذا الإرث الحضاري الجميل. وعلى بعض البتير أو السواري التي سبق وصفها رسومات محفورة، يحفرها النجارون، وهي أشكال تمثل سيوفاً ورماحاً وأشكالاً جمالية أخرى مختلفة.

وتطلى جدران المجالس (الأجزاء التي تعلو النوافذ) بل جدران كل البيت من الداخل باللون الأبيض المحضر من الجص (القص). أما الجزء من الجدار ما بين مستوى ضلع النافذة العلوي ومستوى ضلعها السفلي فإن هذه المساحة تطلى باللون الأبيض وتزين برسومات جميلة وخطوط طولية على امتداد جدران المجلس واستدارتها، وتسمى القط. وتطلى أجزاء الجدار أسفل مستوى النافذة باللون الأخضر، المستخرج من عصارة أغصان القضب (البرسيم) الطرية. وتقوم بزخرفة المنطقة البيضاء نساء محترفات، يسمين بالقطاطات أو الخطاطات أو النقاشات، ويحظين باحترام فائق من قبل السكان. وهناك من ربات البيوت من يقمن بقط بيوتهن بأنفسهن، ولكن ليس بالإتقان نفسه الذي تقوم به المحترفات،

مجلس النساء في أحد بيوت رجال ألمع بعسير ويلاحظ اللون الأبيض للجدران، كما يلاحظ عند الباب المقعد المخصص لسيدة المنزل

وهن قلة على مستوى الإقليم. ويحيط بالنوافذ من الخارج إطار بالقص ذي اللون الأبيض، وإطار آخر بالقص ذي اللون الأحمر، ويسمى مشقْ ويستخرج من أمكنة معروفة في الجبال أو باطن الأرض. وتصهر شرفات المنازل العلوية باللون الأبيض.

ولغرف النوم نوافذ لا تزيد على الأربع، وهي غير مرتفعة كتلك الموجودة في المجلس، ولها دوابيب كتلك الموجودة في المجلس أيضاً، وبها خزائن مبنية يبلغ ارتفاعها نصف ارتفاع الغرفة وأوتاد لتعليق الأغراض وحفظها. وبدار المرأة أعواد معلقة بحبال من طرفيها، تثبت الحبال في سقف الدار، وتسمى هذه الأعواد أو الأخشاب السيِّع، (مفردها سياع)، تعلق عليها المرأة أثاث غرفتها من بسط وفرائق (جمع فريقة، وهي المنسوجات الصوفية المحلية)، وملاحف (جمع ملحف، وهي مصنوعة من جلود الأغنام الناعمة)، وتعلق عليها المرأة أيضاً ملابسها وملابس زوجها.

وغالباً ما يجدد طلاء البيت مرتين في العام، أي في الأعياد، فترى البيوت وقت الأعياد تلبس شرفاتها حلة بيضاء. واللونان الأبيض والأحمر يحيطان بنوافذ المنزل، خاصة نوافذ المجلس وغرف النوم. ويحيط بمداخل البيوت الرئيسية إطار ثلاثي أبيض وأحمر ورمادي ضارب إلى السواد.

ويطلى الدرج من أول البيت إلى أعلاه بالألوان البيضاء والحمراء والخضراء. كما تطلى من الخارج بعض البيوت المبنية بالحجر، وخاصة بيوت عِلْية القوم، بمادة تسمى القضاض، مستخرجة من حجر الجير، ولونها ضارب إلى البياض. وأكثر ما نشاهد القضاض في المساجد. وتزين البيوت التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة أو أربعة أدوار بدءاً من منتصف الدور ما قبل الأخير بشرفات تسمى تشاريف (واحدتها تشروفة) وهي إطارات متعددة ومنفصلة بعضها عن الآخر من الخارج. وترتكز هذه الإطارات على ألواح خشبية، وتحيط بالبيت كالحزام. وهذه التشاريف لا تجدها إلا في البيوت المبنية من اللبن والطين فقط والخالية من الرقف. وتزين أركان البيت في أعلى مدماك منه شرفات بارتفاع حوالي ٤٠ سم تسمى صُوَبْ (جمع صوبة). كما توضع في منتصف المدماك بين الصوبتين، أي الركنين، كومة مرتفعة كتلك التي على الأركان لإضافة مظهر جمالي.

المراحيض (المطاهر أو المغاسل): لا يوجد في البيت السروي التقليدي

حمامات بالمفهوم الواضح لمعنى الحمام، ولكن يوجد به ما يسمى بالمطاهر، جمع مطهر. ويبدو أنه مشتق من لفظة طهور أي مكان الوضوء والغسل، حيث لا يوجد في معظم البيوت إلا مطهر واحد، يكون في السطح. وهو مكشوف يفيض ماؤه إلى الخارج من خلال ميزاب. وفي بعض البيوت مطهران آخران، واحد قريب من المجلس والآخر في المطبخ، والأخير تستفيد منه ربة البيت لغسل الثياب أو تنظيف أدوات الطبخ أو غير ذلك. وهو لا يستخدم لغير هذه الأغراض ولا يستخدمه أحد غير ربة البيت، ولا يدخل المسقف، أي المطبخ، غير النساء. وكثير من أبناء الأسرة من الذكور لا يعرفون هيئة مطبخ منزلهم.

الأحواش والمدافن: يحيط بمعظم البيوت وخاصة الكبيرة منها حوش يسمى حصيراً أو حوي. ولهذا الحوش باب رئيسي كبير، وآخر صغير، يسمى السلفة. وأحياناً ينقسم الحوش إلى قسمين، قسم للحيوانات، وبه حجرات لمبيت الحيوانات، وآخر لحفظ علفها. وفي داخل الحوش مكان لدبغ الجلود، يسمى الصور. وبالأحواش وداخل بعض الحجرات أو الغرف مدافن لخزن حبوب الذرة والشعير، وهذه المدافن تحفر بعمق ثلاثة أمتار في الأرض وقد تزيد. وهي ذات سعة تخزينية عالية. وبعد وضع الحبوب في المدفن العميق تقفل فوهته ذات الشكل الدائري بإحكام، وذلك برحى صنعت خصيصاً لهذا الغرض، ثم تدفن الحفرة العلوية وتكبس أو تدفن بالتراب إلى أن تصبح بمستوى سطح الأرض ولا يرى لها أثر، ولا يستدل على مكانها إلا بعلامة لا يعرفها إلا الكبار من أصحاب المدافن. ومن أسباب اختيار موقع الدفن في حجرات البهائم زيادة الاحتياطات الأمنية وتضليل العدو في حالة الحروب. وقد يشترك في المدفن أكثر من شخص، وكل يعرف كمية حبوبه المخزونة. وقد تصل مدة الخزن أحياناً إلى ما يزيد على عشر سنوات. وقد استفادت البلدان العسيرية التي يعتمد أهلها على هذه الطريقة لتخزين منتجات مزارعهم من الحبوب في مقاومة حملات محمد علي العسكرية، وحملات الدولة العثمانية إذ لم يستطع الاتراك الاهتداء إلى مكان مخازن حبوب الأهالي فتعرضت جنودهم للمجاعة في عدة مناسبات.

المحطابه: في خارج الحوش يكون لكل بيت مكان لوضع الحطب، ويسمى هذا المكان المحطابة، وفيه يصف الحطب في أشكال طولية تسمى السرف (مفردها

سريف). وكذلك يوجد مكان يوضع به روث المواشي كالبقر والأغنام ويسمى المدمَّن. وهناك مكان آخر لوضع الرماد، وتسمى المرمادة يجمع فيها إضافة إلى الرماد كل قمائم البيت الأخرى. ويحتم العرف على كل السكان الاهتمام بنظافة الطرقات. ومن يتهاون في هذا الأمر تطبق عليه غرامات مادية، إضافة إلى التشهير به. وعلى كل سيدة أن تنظف كل الطرقات المحيطة بمنزلها. ولذلك كانت ممرات وطرقات القرى في السنوات السابقة جميلة ونظيفة. ولم تكن بيوت القرى في الماضي تخلو من حديقة صغيرة تزرع فيها سيدة البيت النباتات العطرية، مثل الريحان والشيح والبعيثران والبردقوش والوزاب والكادي. ويضع بعض الأفراد على آخر مدماك من مداميك أحواش منازلهم أغصاناً كثة من الأشجار الشوكية لمنع الحيوانات المفترسة، مثل الذئاب، من مهاجمة حظائر الغنم والماعز، ولمنع الثعالب من مهاجمة الدجاج.

طريقة البناء والزخرفة. تتلخص طريقة البناء بالطين والرقف في قيام الباني (المعلم) بإنشاء الحوائط على هيئة مداميك، ارتفاع كل مدماك حوالي ٤٠سم وعند النهاية العلوية لكل مدماك تثبت صفائح من الحجر نصفها داخل في مدماك الطين، والنصف الآخر بارز للخارج بشكل مائل للأسفل ليسهل انزلاق مياه الأمطار إلى الأرض دون الوصول إلى المدماك. ثم يبدأ في وضع المدماك الثاني فوق الصفائح ويستمر بناء الحائط بنفس الطريقة ويتم تسقيف الأدوار بطريقة مشابهة للمباني الحجرية. ويلاحظ أن ذروة معظم المباني في منطقة السراة تمتاز بزيادة ارتفاع الذروة في أركان المبنى عن باقي الدار بحوالي نصف متر. وتبنى الزيادة الركنية بزيادة بناء الحائط عند الركن أو بتثبيت حجر طويل في زاوية المبنى.

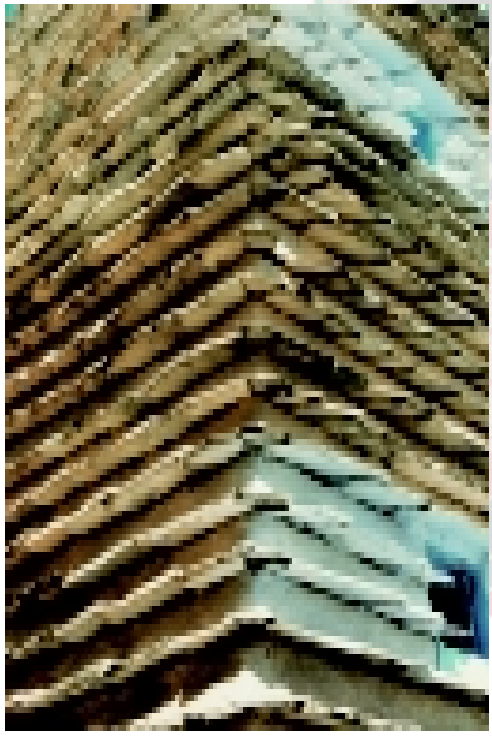

البناء بالطين والرقف في عسير

أما أعمال النقش والزخرفة فيستخدم فيها حجر المرو كمادة أساسية في زخرفة الحوائط الخارجية للمباني الحجرية، ويمتاز المرو بلونه الأبيض الناصع الذي يتباين مع لون الحجارة المستخدمة في البناء ويزين واجهة المبنى. كما يبدع البناؤون في رص حجارة المرو بأشكال هندسية مختلفة، خصوصاً حول النوافذ وفي الأدوار العليا من المبنى. وتظهر هذه الأشكال على هيئة خطوط مستقيمة أو متعرجة أو منقطة على أشكال مربعات صغيرة داخل إطار مستطيل.

وتزخرف أيضاً الحوائط الداخلية للمنزل، وتتخصص النساء في عمل هذه الزخارف. وعلى الرغم من صعوبة هذا العمل إلا أن نساء القرية يتنافسن في التفنن فيها. ولهذا يلاحظ تميز الأشكال والألوان من منزل إلى آخر حسب ذوق المرأة. ويعتمد في التلوين والزخرفة على المواد المحلية، فالطلاء الأبيض البراق، ويسمى الجص، يؤخذ من عروق جيرية مستخرجة من الجبال تنقع في الماء ثم تدق وتخلط بالصمغ الذي يجمع من أشجار الطلح. والطلاء الأخضر يستخرج من البرسيم الأخضر (القضب) ويدعك مباشرة على الحائط أو يعصر ويضاف إلى مخلوط الطلاء الأبيض. ويمكن تحويل طلاء البرسيم الأخضر إلى أسود بإضافة السواد (الكربون) الذي يجمع من وضع صحن (طبق) على مصباح الكيروسين. هذا بالإضافة إلى لون القطران الأسود الذي تطلى به بعض الأبواب والنوافذ ويستخرج من حرق أعواد شجر العتم وهي خضراء. كما توجد أنواع من الطين ذي اللون الأسود أو الأحمر، أما الألوان الأخرى كالنيلة التي يستخرج منها اللون الأزرق فكانت تجلب من الأسواق (آل سعود ١٩٨٩: ١٠٨).

وتمتاز بعض المباني الحجرية في سراة عسير بوجود تجويف في الحائط الخارجي للمبنى يطلق عليه المردى يقع فوق المدخل ويستمر إلى سطح المنزل حيث توجد فتحة مخصصة لإلقاء الحجارة على رؤوس المهاجمين عند اقتحامهم المبنى. وعرض المردى هو عرض المدخل(بين ٨٠سم و١٠٠سم) ويبرز إلى الخارج حوالي نصف متر.

المظاهر الاحتفالية المرتبطة بالعمارة. لم يكن سهلاً على المرء أن يشرع في بناء بيت يسكنه إلا بمساعدة من جماعته. وتنجز الكثير من الأعمال في المنطقة عن طريق العمل الجماعي، وخاصة ما يتعلق ببناء البيوت، وبالمجال الزراعي، مثل حفر الآبار، وحصد المحاصيل، وبناء الطرق

والسدود أو العقوم الترابية على الأودية، وبناء طرق المياه وترميمها. ويحتم العرف على الجميع مساعدة كل مواطن يريد أن يبني منزلاً يسكنه. وعندما يقرر أي فرد الشروع في بناء منزله، فإنه يدعو جماعته إلى وليمة عشاء يحضرها كل كبار القوم وعامتهم. وبعد الانتهاء من العشاء يعلن صاحب الوليمة عن رغبته في بناء منزل، ويوضح أنه فرد من جماعة وأنه يطلب منهم مد يد العون والمساعدة. فيبارك القوم مشروعه، ويعلنون الوقوف إلى جانبه. أما نوع المساعدة فتتمثل في أن تمده الجماعة بعاملين يومياً إلى أن يتم الانتهاء من البناء ويتفق الجماعة على تحديد الأشخاص بالتناوب، من كل أسرة شخص واحد. كما تقوم الجماعة بمده بعدد من الثيران يومياً، قد تصل إلى خمسة أو ستة، لرصع الخلب إذا كان البناء سيبنى من الطين، أو لجلب الحجر من الجبال. وتمده الجماعة أيضاً بعدد من الحمير لنقل الخلب من مكان إعداده إلى مكان البناء، وعدد من الأولاد الصغار لمرافقة الحمير أثناء نقل الخلب، هؤلاء الصغار يسمون الحُدَّاي (جمع حادي). كما يتعهد الجماعة بإطعام جميع عمال صاحب البناء بوجبة العشاء في معظم أيام الأسبوع، طوال فترة البناء، وتتكون الوجبة غالباً من ذبيحة وما يرافقها. أما صاحب البناء فعليه تقديم وجبتي الغداء والوصل. ووجبة الغداء كانت تقدم في ما بين الساعة التاسعة والعاشرة تقريباً قبل الظهر. أما الوصل فتقدم حوالي الرابعة عصرا.

يتفق صاحب البناء مع البنَّاء، ويسمى في السراة بالباني، كما يُشغّل عاملين أو ثلاثة بأجر متفق عليه، وهؤلاء العمال دائمون طوال فترة البناء. أما الباني فلا يتفق معه على أجرة معينة، لأن في ذلك ما يشبه الإهانة، وهو الذي يحدد أجرته بنفسه عند الانتهاء من البناء. ويحظى الباني بقدر كبير من الاحترام والتقدير، فيقدم له ولمن معه من العمال يوم البناء طعام خاص هو المصبع، وهو من أرقى أنواع الوجبات في عسير ويحضر من البر والسمن وهو لا يصنع عادة إلا في الولائم الكبيرة مثل أفراح الزواج والختان. والشخص الآخر المهم لإنجاز عملية البناء هو النجار، وهو أيضاً لا تحدد له أجرة بل تترك إلى حين الانتهاء من البناء ثم يشيخ، أي يعطى الحق في تقدير أجرته كما يفعل مع الباني، ولكنه لا يرقى إلى درجة الباني من حيث التقدير من صاحب العمل والعمال، وغالباً ما يكون النجار تحت سلطة الباني مثل بقية العمال. وأكثر

من يعانـي أثناء فترة البناء هـن النساء، خاصة المعزبة (زوجة صاحب البيت) إذ تتضاعـف مسؤولياتهـا في إعداد طعام العمال، وإطعام الحيوانات، إضافة إلى مسؤولياتها الأخرى.

كما يقـوم أقرباء صاحب البـناء من غير جماعته (مثل الأرحام والأصهار) بمده بالمساعدة، إما بالرجال أو بالحيوانـات أو باستضافة عماله من وقت إلى آخر. أما المساعدات الأخـرى التي يحصل علـيها صاحب الـبناء من جماعـته فهي منـحه أخشاباً من حمى الجماعة لإكمال بناء منزله إذا كان من سـقف (دور) واحد، حتـى وإن كانت الأخشاب من أشجار خضراء مع ما في ذلك من تجاوز، إلا أنه تجاوز للضرورة. كذلك تساعده الجماعة في نقل الأخشاب والأحجار المطلوبة للبناء، مهما كانت بعيدة، ومهما كانت ثـقيلة، وهذا طبعـاً قبل وفرة وسائل الـنقل الحديثـة، ويحملون الأخشاب بشكل جماعي على الأكتاف. أما الأحجار فكانت تجر بواسطة الأبقار من الجبال على مسافات أحياناً قد تكون بعـيدة بواسطة آلة خـشبية تسمى مجر. أما الرقف، وهي الأحجار الرقيقة التي توضع بين المداميك لحفظها من المطر، فتحضر من أماكـن مخصصة لهذا النوع من الحجر بواسطة الجمال.

وإذا انتهى البـناء تماماً أقام صاحب المنزل وليمة عشاء، يدعو إليها كل جماعته والباني والنجار ومساعدي الباني، وكل من شارك في البناء. وتكون هذه الليلة مشهودة، إذ يعقب حفلة العشاء تشييخ الباني، أي يعلن مقدار أجرته، وكذلك تعـلن أجرة الـنجار. ويسـمى النـجار بالصانع، ولكي يميز عن غيره من الصناع يسمى صـانع العود. وصناع العـود أي النـجارون هم أرقى طـبقات الصـناع، ويحظون باحترام المجتمع. وقد برز من هذه الفئة فـحول الشعراء الشعبـيين في بعض المـناطق مثـل منطقة بـلاد رفيدة قحطان، وكذلك في سراة عبيدة. وقبل ليلة الاحتـفال يكون صاحب المنزل قـد اشترى ثوباً وغترة وعقالاً للباني، ومثلها للصانع، وغترة لكل واحد من مساعدي الباني، ويقوم بتوزيعها عـليهم أمام كل من حضر المناسبة.

وبعد الانتهاء من العشاء يقوم الباني بإلقاء كلمة تقال في مثل هـذه المناسبة. ثم تنتهى بإعلان مقدار أجرته، إذ يقول أجرتي كذا وكـذا، وغالباً ما يبـالغ في مقدار الأجرة. ثم يسود صـمت يقطعه الباني نـفسه حين يقول: أما مـبلغ كذا فهو متروك كمساعدة لـصاحب البيت، ومبلغ كذا هدية للمعزبة ربة المنزل التي

نالها كثير من التعب والعناء أثناء فترة البناء، ومبلغ كذا متروك بوجه الجماعة، ثم يصفي المبلغ على أجرته الحقيقية. حينئذ يتقدم صاحب البيت والجماعة بالشكر والثناء للباني الذي يلبس ما قدم له من هدية من الثياب الجديدة ويحتل المكان البارز في المجلس، ثم بعد ذلك ينهض ويأخذ طريقه إلى السطح الأعلى للمنزل، ويعلن بأعلى صوته بحيث يسمعه كل من لم يحضر حفلة العشاء، وكل عابر سبيل، وكل من في القرى المجاورة، ويقول «من هي له البيضاء فهي مثنية من بيشة الغنياء إلى نجران فهي لفلان بن فلان بيض الله وجهه في بانيه وعماله». وكذلك يفعل الصانع ثم يردد الجميع «يستاهل يستاهل». ثم تقام حفلة رقص وطرب، تستمر إلى وقت متأخر من الليل. وفي ليلة الاحتفال يقوم أهل القرية بتقديم المساعدة النقدية لصاحب البيت، كل حسب قدرته. وحينما ينتقل صاحب البيت إلى مسكنه الجديد يقيم حفلة عشاء أخرى، تسمى بالنزالة، يدعى إليها كل جماعته وكل أقربائه. وفي اليوم التالي وربما لعدة أيام تتوافد النساء لتقديم التهاني لصاحبة البيت والتبريك بالسكن الجديد، مصحوبات بالمساعدات النقدية والعينية.

إن الوصف السابق ينطبق على البيت العسيري من نهاية بلاد بلّسمر إلى نهاية بلاد قحطان، وهو بيت يختلف عن بقية بيوت السراة، وهي سروات بني سعد، وثقيف، وبلحارث، وبني مالك، وزهران، وغامد، وخثعم والحجر.

الهضبة الداخلية

تقع الهضبة شرقي جبال الحجاز، وينحدر سطحها تدريجياً نحو الشرق إلى أن تصل قرب وادي الدواسر. وتمتد الهضاب شرقي السراة حتى الباحة، وبها واحات متعددة، ويخترقها وادي تربة المنحدر من زهران، ورنية المنحدر من غامد إلى جانب بعض الأودية الأخرى. ونظراً لانحدار مياه الجبال باتجاهها فقد تكونت بها وديان كثيرة وكبيرة، وعلى أطراف تلك الوديان وبالقرب منها انتشرت الزراعة والقرى التقليدية. وتتكون هذه المنطقة من عدد من الهضاب المتميزة انتظم كل منها حول مجار مائية معينة، مثل هضبة عسير التي تمتد إلى وادي الدواسر، وفيها وادي بيشة ووادي تثليث، وهضبة نجران التي تقع إلى الجنوب الشرقي من هضبة عسير وتمتد من المرتفعات إلى حدود الربع الخالي، ويمر بها وادي نجران ووادي حبونا.

ونظراً لكون المنطقة مركزاً للمناطق المجاورة لكثرة عمرانها وسكانها ولموقعها الاستراتيجي الذي يشكل بوابة طبيعية إلى تهامة أو إلى نجد، فقد امتازت عن المناطق الأخرى بكثرة الصراعات، وصاحب الاستيطان بها تاريخ طويل من القتال المستمر سواء بين القبائل المتجاورة أو بين هذه القبائل والقادمين من خارج المنطقة كالأتراك والأدارسة.

أما مناخ منطقة الهضبة فهو أكثر حرارة من جبال السروات. وتختلف درجات الحرارة حسب ارتفاع المنطقة وقربها من الجبال. وأمطار الهضبة الداخلية قليلة بصفة عامة، ويبلغ معدل كمية الأمطار أقل من ١١٠مم في جميع محطات أرصاد هذه المنطقة (الشريف ١٤٠٤، ج٢: ٣٩٣-٣٩٤).

التطور العمراني في قرى الهضبة. يعتمد سكان قرى هضبة عسير على الآبار الواقعة في السهول وبالقرب من مجاري الوديان كمصدر رئيسي للمياه. ويحفر سكان القرى التقليدية آباراً بجوار المساجد، كما في قرية آل ينفع وآل غيثان وظهران الجنوب. وإذا تعذر حفر الآبار داخل القرية فإنها تحفر في أقرب مكان توجد به مياه، وتغذى القرية بمد المياه عبر قنوات إلى المسجد أو حملها بواسطة القرب. ويستفاد أيضاً من الآبار في زراعة المسطحات الزراعية التي تمتد بالقرب من الوديان. وتشكل الأمطار مصدراً ثانوياً للمياه يستخدم لري المساحات الزراعية خصوصاً في القرى الواقعة بالقرب من جبال الحجاز.

وكما في مناطق العمران التقليدي الأخرى يلاحظ أن القرى التقليدية تتوزع في الهضبة تبعاً للحدود المتعارف عليها قبلياً وحسب فروع القبيلة وأفخاذها. وينتمي سكان كل قرية إلى قبيلة واحدة. وفي القرى الكبيرة، التي يزيد عدد سكانها عن ٢٠٠٠ نسمة، يقطن شيخ القبيلة ويكون بها السوق الأسبوعي والمسجد الجامع.

ويلاحظ أيضاً أن النمط العمراني لقرى هذه المنطقة أكثر انتشاراً، مقارنة بالقرى في السراة، إذ إن معظم البنايات قائمة بذاتها كالقلاع ومنفصلة عن الأبنية المجاورة. وهناك عدد قليل من القرى التي تكون فيها بعض الأبنية متلاصقة وممراتها ضيقة وأجزاء منها مغطاة.

وتعتمد الأبنية في القرى التقليدية في هذه المنطقة بشكل أساسي في إنشائها على الطين المستخرج من المزارع القريبة، عدا بعض القرى القريبة من المرتفعات حيث توجد المباني الطينية جنباً إلى جنب مع المباني الطينية الحجرية.

والحقيقة أن لكل قرية من قرى المنطقة خصائص عمرانية تنفرد بها وفقاً للأحوال المحلية كالتضاريس وملكية الأراضي والموارد المائية، وإن كثيراً من هذه القرى لا يزال بحالة جيدة. وتعد قرية آل غيثان الواقعة بوادي تندحة على بعد حوالي ١٢كم شرقي مدينة الخميس نموذجاً جيداً لقرى الهضبة، إذ تعكس النمط العمراني لمعظم قرى المنطقة، وهي مأهولة بالسكان وما تزال مبانيها التقليدية بحالة جيدة.

وقرية آل غيثان على الطرف الشرقي من الوادي وتحيط بها الحقول الزراعية. وإلى جانب المنازل توجد بالقرية الشوارع الضيقة والممرات التي تصل بين مباني القرية المتناثرة والساحة الرئيسية والمزارع والمراعي. وتبدو مباني القرية مبعثرة. ولكل بيت حوش خارجي يحيط به سور. وتنتشر الأحواش هنا بسبب سهولة مواقع القرى وإمكانية التمدد والتوسع في المباني، إضافة إلى أن قرى هذه المنطقة أكثر استقراراً لكونها بعيدة إلى حد ما عن حركة الجيوش التي كانت تأتي من خارج المنطقة، كما أن المناخ أقل قسوة مقارنة بمنطقتي الأصدار والسراة.

وتتكون القرية من حوالي ١٥٠ مبنى معظمها طيني. وفيها عدد قليل من المباني الحديثة التي استخدمت في بنائها الخرسانة المسلحة، وتختلف هذه المباني من حيث الشكل والمواد واللون عن المباني التقليدية، وتشذ عن المظهر العام للقرية. أما المباني التقليدية فتأخذ طابعاً يتشابه مع القلاع الجبلية وتعتمد على الطين كمادة بناء أساسية، إضافة إلى الحجارة المستعملة في بعض الجدران المساندة والأساسات. ويتراوح ارتفاع المباني ما بين دور واحد وأربعة أدوار، ومعظم واجهاتها مُلَيَّسة بالطين، وفتحات النوافذ والشرفات مزخرفة بالجص الأبيض الذي يعطي شكلاً جميلاً ومتناسقاً مع لون الجدران الطينية.

والحركة الأساسية داخل حدود المسكن تعد رأسية، فالسكان ينتقلون بين عناصر المنزل الموزعة على طوابق المبنى من خلال الدرج، كما أن هناك حركة أفقية ثانوية تربط بين الحوش والمبنى، أما الحركة خارج حدود المسكن فتتنوع بين حركة التنقل بين المنازل والجيران وبين المنزل والمسجد وتتم من خلال الدروب المتعرجة والضيقة.

وتغلب المباني السكنية على استعمالات الأراضي في قرية آل غيثان، كما يوجد مسجد ومدرسة وبعض الدكاكين الصغيرة ومقبرة في شمال القرية. أما الفراغات خارج المباني فهي

شبكة من الطرق والممرات المتعرجة، إضافة إلى الساحة الرئيسية لمركز القرية والساحات الأخرى المتفرقة بين المباني، كما أن المزارع تحيط بالقرية وتتداخل مع مبانيها وفراغاتها. ويلاحظ أن نسبة الفراغ العمراني المتمثل في الفراغات العامة والأحواش المحيطة بالمباني أكبر من نسبة الكتلة العمرانية المتمثلة في المباني القلاعية القليلة المساحة والمنتشرة في القرية داخل حدود الأحواش. وتُعد المباني التقليدية بقرية آل غيثان نموذجاً للمساكن التقليدية في المنطقة، وتبنى من الطين الخالص، عدا بعض المباني التي يستخدم فيها الحجر مادة ثانوية في الأساسات والدور الأول، إضافة إلى وجود الرقف في كثير من المباني الواقعة في المناطق التي تزيد بها الأمطار.

ويلاحظ أن مساحة الأرض المخصصة للمباني السكنية كبيرة في هذه المنطقة مقارنة بمنطقتي الأصدار والسراة، إذ تزيد في معظم المساكن على ٢٠٠م٢ إلا أنها تقل عن مثيلاتها في تهامة. ومع أن المساحة كبيرة إلى حد ما إلا أن الملاك يستقطعون جزءاً منها (حوالي ١٠٠م٢) في أحد أركان الأرض للبناء، ويفضلون الارتفاع بالمبنى إلى ثلاثة أدوار بل إلى خمسة في بعض القرى. أما المساحة المتبقية فتخصص كفراغ مفتوح (فناء) حول المبنى يستخدم غالباً للمواشي وقت النهار وفي الليالي الحارة، كما يستخدم لجلوس العائلة في بعض الأحيان.

يتكون الطابق الأرضي من المدخل الرئيسي المتصل مع الدرج إضافة إلى مدخل أو مدخلين للماشية وتخصص أماكن في هذا الدور للماشية ولتخزين الأعلاف ومدافن الحبوب. أما الطابق الأول فيكون من غرفة للاستقبال (المجلس) وغرفتين للعائلة، إضافة إلى دورة مياه ومكان لتخزين الغلات الزراعية والمواد الغذائية. ويضم الطابق الثاني أماكن لنوم العائلة والمطبخ، كما توجد المصطبة في هذا الطابق وهي المكان المفتوح أمام غرف النوم، وتستخدم لجلوس العائلة والمراقبة حيث يوجد بها الفتحات الضيقة، وهي تتشابه مع المشراح الموجود في المباني الأسطوانية بجبال فيفا. وفي حالة وجود دور ثالث فهو يحتوي على غرفة رئيسية لرب العائلة يجتمع فيها بأصدقائه، وتتيح مراقبة البيئة المحيطة، كما يحتوي على المطبخ. ويكون المطبخ في الطابق العلوي للتخلص من الدخان والهواء الساخن حيث تخصص فتحة في أعلى الجدار لذلك.

البنـاؤون وطرق البناء. تـتنوع طرق إنشاء المباني في منطقة الهضبة وفقاً لمدى قرب القـرية من خط الشعـاف، ولمدى جودة الطين المـستخدم في البنـاء. ففي القرى القريبة من السراة تستخدم الحجارة في الأساسات وفي الطابق الأرضي، ثم يستكمل البناء بالطين والرقف أو بالطين فقط. وفي الـقرى الواقعة بالـقرب من خط الشعاف جنوبي مدينة خميس مشيط تبنى المنـازل باستخدام الطين والرقف. أما في القرى الـواقعة في وسط المنطقة (من خميس مشيط وحتى منـطقة نجران وبيشة) فإن المنازل تبنى باستخدام الطين الخالص. وهذه المباني إما أن تدهن بالطين من الخارج، كما في مدينة خميس مشيط والقرى القريـبة منها، أو تظهر خطـوط المداميك في واجـهات المباني، كما في قرى سـراة عبـيدة والحـرجة وظـهران الجنوب. وعلى أي حال فإن جميع تلك المباني تعـتمد على الحوائط الحامـلة في إنشائها، أما الفوارق المذكورة فقد ظهرت كمعالجات لتقوية الحوائط الخارجية ضد الأمطار. وعندما يكون الطين المستخدم في البناء من نوع جيد مع قلة في الأمطار يستغنى عن استخدام الحجارة والرقف.

ويبدأ إنشاء المنزل بأن يقوم صاحب المنزل بتهيئة المـوقع المحدد للبناء ويكون الموقع داخل القرية أو بالقرب من مزرعته، ومن ثم يكون الاتفاق مع البناء (المعلم) على كل ما يتعلق بالمسكن. ويقوم البناء بفحص التربة للتأكد من نسبة ملوحتها، فإذا كانت تربة جـيدة وصلبة فلا يعمد إلى تعميق الأساسات وإنما يكتفي بعمق حوالي نصـف متر وعرض حوالي متـر وإن كانت غير ذلك فـتعمق الأساسات إلى عمق من متر إلى متر ونصف. ويتم جلب مواد البناء المستخدمة في الأساسات من أقرب مقطع للحـجارة يكون ضمن أراضي القبيلة، وكذلك الطين من المواقع القريبة من الأودية، أما الأخشاب فيؤتى بهـا من الأملاك الخاصـة أو من حدود غابات القبيلة.

يبدأ المعلم في بناء الأساسات، وغالباً تبنى من الحـجر أو من الحجر والطين، وترتفع الأسـاسات إلى مستوى أرضـية الطابق الأرضي وقـد تستمر إلى ارتفاع متر أو مترين حسب موقع المبنى. ويبدأ بناء الحوائط بعد إنهاء الأساسات وتحديد فتحات الأبواب باستخدام الطين المخلوط بالتبن والذي يسمى محلياً بالخلب. وتبنى الحوائط بعرض يتراوح بين ٤٠ سم إلـى ٥٠ سـم عن طـريق رص الـطين فـوق الأساسات عـلى هيئة مداميـك يتراوح ارتفاعها ما بين ٤٠ سم و ٥٠ سم. وبعد

الانتهاء من بناء المدماك الأول يتوقف البناء لمدة يوم لكي يجف الطين، وبعد ذلك يبدأ في رص المدماك الثاني (في حالة استخدام الرقف في البناء، ترص الرقف بين كل مدماك وآخر). وهكذا فإن بناء مدماك الطين الواحد يحتاج إلى يومين على الأقل. وتستمر هذه الطريقة إلى أن يصل إلى مستوى تسقيف الطابق الأرضي بعد أن يكون قد تم بناء ٧ إلى ٨ مداميك (العبودي ١٤١٠ : ١٥٦-١٥٧). ويعمد المعلم إلى بناء عمود الارتكاز الذي يدور

البناء بالطين والرقف، مع وجود مزراب (مسراب) لتصريف مياه الأمطار

الدرج حوله حتى الطوابق العليا، ويعرف محلياً بالسّك. ومن الطريف أن الدرج ينشأ على مرحلتين، الأولى تثبيت الأخشاب المنحدرة الداعمة للدرج واستخدامها كوسيلة نقل منتظمة الانحدار لنقل مواد البناء الثقيلة إلى أعلى المبنى بواسطة الحمير، وفي المرحلة الثانية تبنى الدرجات من الطين.

يسقف الطابق الأرضي بتثبيت جذوع خشب العرعر باتجاه عرض الغرف، ثم تثبت فوقها بشكل طولي عوارض خشبية من أشجار المنطقة تسمى السهوم، وتغطى بأغصان نباتية طويلة تسمى الجراع (مشابهة لنبات البوص) ترص بشكل جيد وتربط بخيوط من السعف تسمى الخبار، ومن ثم تفرش عليها أوراق شجر الحلفا المحلية وتغطى بمادة الخلب الطينية بسمك حوالي ١٠ إلى ١٥سم. ويبنى الطابق الأول وبقية الطوابق بنفس الأسلوب مع تقسيم الغرف وتحديد فتحاتها ونوافذها. وبعد الانتهاء من الإنشاء تدهن الواجهة الخارجية بمادة الخلب الطينية.

بعد بناء الهيكل يبدأ دور المرأة في تشطيب المنزل من مسح وتنعيم للحوائط الداخلية ومن ثم تزيينها وتلوينها مع الأبواب والنوافذ حسب ذوق ربة المنزل. وتتركز الزخرفة الداخلية للمبنى في

زخرفة رائعة للمجلس يتكامل فيها السقف مع الحيطان والأرضية

حوائط غرف الضيافة والدرج، وتتخصص ربة البيت في هذا العمل. وتأخذ الزخارف أشكالاً هندسية مختلفة، منها المثلثات والدوائر والخطوط المتعاقبة على امتداد الغرف وبألوان مختلفة، معظمها مستمدة من البيئة المحلية. وأحياناً يلون المجلس بارتفاع متر عن الأرض باللون الأصفر أو الأخضر، كما تطلى بعض الأسقف باللون الأبيض أو الأخضر وتلون السواري (جذوع العرعر) والعوارض بألوان مختلفة. وتضفي هذه الزخرفة بأشكالها وألوانها المختلفة على المنزل قدراً من الجمال والبهجة، كما تبرز دور المرأة ولمساتها في البناء.

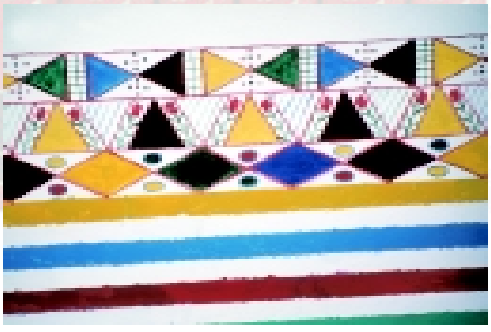

ثبات الألوان ودقة النقش في زخرفة البيت العسيري

جمال النقش والأصباغ والزخرفة على الأبواب الخارجية والداخلية في بيت بالباحة

ولا تقتصر أعمال الزخرفة على الجدران، بل تمتد كذلك إلى الأبواب والنوافذ، ويعتمد في صناعة الأبواب والنوافذ على الأخشاب المحلية. وتكون صناعتها وزخرفتها بواسطة متخصصين يقومون بحفر أشكال هندسية مختلفة عليها، ومن ثم تطلى باللون الأسود المستخرج من القطران. وللنساء دور كبير في زخرفة وتلوين الأبواب والنوافذ وإخراجها بأشكال جذابة باستخدام عدة ألوان متناسقة.

ويميز واجهات المباني الطينية غير المليسة في منطقة الهضبة ظهور حواف المداميك من الخارج مشكلة خطوطاً أفقية تحيط بالمبنى وتقسمه إلى شرائط أفقية يزيد ارتفاعها عند الأركان. ويستطيع من يرى المبنى أن يعرف ارتفاع المبنى من عدد مداميكه. وتزخرف أركان المباني المرتفعة كما في قرى السراة بأشكال مختلفة، وتدهن بألوان فاتحة تتباين بلطف مع ألوان الطين الداكنة. وقد امتازت مباني بعض القرى في الهضبة والسراة باستخدام الرقف في صورة أحزمة تدور حول المبنى

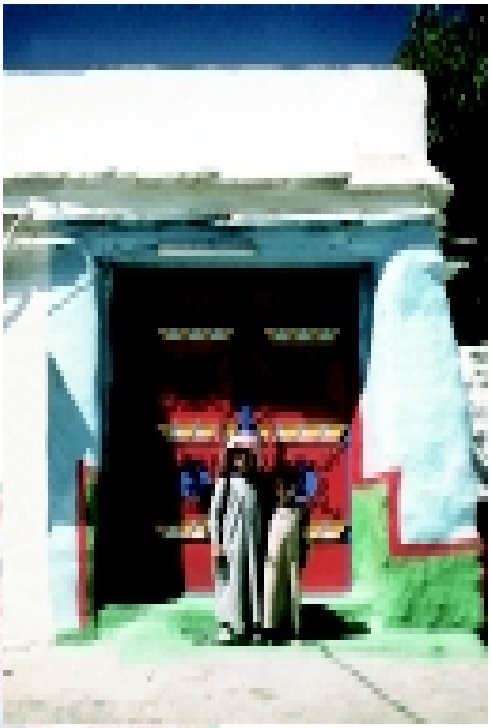

زخرفة الأبواب في عسير

وتبرز تقسيماته الأفقية المنتظمة وتزيد من جماله.

أنماط العمران ومحدداته. تنقسم العوامل المؤثرة في عمارة المنطقة الجنوبية إلى قسمين؛ عوامل بيئية طبيعية كالموقع الجغرافي وجيولوجية الموقع والتضاريس والمناخ والمياه، وعوامل بشرية كالقيم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأمنية والتقنية.

المحددات البيئية الطبيعية: تؤثر الظروف البيئية الطبيعية في حياة الإنسان، وتختلف هذه الظروف من مكان لآخر، فأحياناً تكون ملائمة لمعيشة الإنسان وتطوره، وأحياناً أخرى تكون غير مناسبة، وفي هذه الحالة يتدخل الإنسان لتهيئة تلك الظروف وتكييفها بما يلائم متطلباته. فالموقع الجغرافي بتكوينه الجيولوجي، وطبوغرافية المكان، والخصائص المناخية، بالإضافة إلى غنى الموقع بمواد البناء وطبيعة الغطاء النباتي، كل هذه تعطي في حالة ملاءمتها إمكانات عمرانية أو غير ذلك في حالة عدم ملاءمتها. فهذه الظروف لا تؤثر فقط في التكوين العمراني بل توحي كذلك بالحلول المعمارية وطرق التشييد. ولا تتجمع تلك الظروف بطريقة متشابهة في جميع المناطق غالباً.

من أهم المحددات الطبيعية للعمران المناخ والموقع الجغرافي وتكوينه الجيولوجي والطبوغرافي. فهناك مواقع جبلية وأخرى ساحلية، ومواقع تغطي سطحها الغابات والمراعي. وهذه المواقع تمتاز عن المواقع الصحراوية أو الفقيرة في معطياتها البيئية، ونلاحظ انعكاس هذا العامل في توزيع المستوطنات إذ تكثر على الأودية التي تتعامد مع ساحل البحر الأحمر، ثم تقل كلما اتجهنا إلى المناطق الوعرة المتمثلة في الجرف المنحدر جهة تهامة، ومن ثم يبدأ وجودها في أعالي

المرتفعات ثم تزيد مع الأودية ووجود المناطق الصالحة للزراعة.

ويتمثل العامل الجيولوجي في معرفة مكونات التربة ومدى ملاءمتها للاستيطان واستغلالها في المنتجات الزراعية، فتجد على سبيل المثال أن التربة الغنية بالمواد الأولية مثل مواد البناء أو القابلة للزراعة تساعد على وجود الاستيطان، حيث يزدهر العمران وتنمو مراكز الإنتاج الزراعي وما يتبع ذلك من خدمات. ومن خلال نوعية التربة التي تنتج مواد البناء المميزة يلاحظ الاختلاف في التكوين العمراني، ففي المنطقة الساحلية حيث تكثر مواد البناء التي يتم الحصول عليها من الأشجار والنباتات تلاحظ كثرة وجود العشش بعكس أعالي الجبال حيث تلاحظ المباني الحجرية، وفي منطقة الهضبة نجد المباني الطينية حيث تكثر المزارع، علماً بأن هذا العامل ليس هو المحدد الوحيد لتوزيع نوعيات المباني ولكن يعد عاملاً مساعداً لعوامل أخرى سيأتي ذكرها.

كما أنها من دراسة مظاهر السطح للمنطقة الجنوبية نلاحظ أن المنطقة متباينة السطح الجغرافي متمثلة في سهول تهامة الواقعة بمحاذاة البحر الأحمر يليها شرقاً منطقة الأصدار وهي معقدة التضاريس وشديدة الانحدار باتجاه الساحل، تليها جبال السروات ويلي المرتفعات شرقاً منطقة الهضبة المنحدرة تدريجياً من جبال السروات باتجاه وادي الدواسر والربع الخالي.

ويتجلى انعكاس طبوغرافية الموقع في العمران التقليدي على مستوى التكوين العمراني وتصميم المسكن، إذ يلاحظ أن المستوطنات التقليدية الواقعة في المناطق الساحلية والمنبسطة يمتد تكوينها العمراني أفقياً بمساحات كبيرة، إضافة إلى أن الحيز المكاني للمنزل يأخذ مساحة أكبر مقارنة بتلك الواقعة في المناطق الجبلية. كما يلاحظ التفاعل بين المباني وطبوغرافية الموقع خصوصاً في المناطق الجبلية، فالمستوطنات الواقعة على سفوح الجبال تتدرج مبانيها حسب الخطوط الكنتورية دون تأثير على شكل الطبوغرافية الطبيعية. أما على مستوى تصميم المسكن فيلاحظ في المناطق الجبلية أن المسقط الأفقي للمسكن يأخذ الاتجاه الرأسي، وتمتد الفراغات والاستعمال رأسياً ليتلاءم مع صغر المساحات المستوية في المناطق الجبلية، كما يوجد على عدة مستويات، بعكس ما يلاحظ في المناطق الساحلية حيث المساحات المستوية والتمدد الأفقي للمسقط على مستوى المسكن.

ولا شك أن الإنسان يتأثر بالأحوال المناخية المحيطة به، ويتفاعل معها بشكل مباشر، ويحدث التبادل الحراري بينهما عن طريق الإشعاع والتوصيل والحمل والتبخر، وهذه الطرق تعتمد درجة تأثيرها على عناصر المناخ الرئيسية وهي درجة الحرارة، الإشعاع، حركة الهواء والرطوبة النسبية، ويصعب على جسم الإنسان في كل الأحوال التكيف مع تلك المؤثرات، ولهذا انطلق في تشييد المباني لتقي جسمه من التأثير المباشر لعناصر المناخ، وللحفاظ على الاتزان الحراري داخل جسمه، بالإضافة إلى محاولة توفير راحة حرارية داخل المبنى تتلاءم مع متطلباته وتتيح له فرصة ممارسة أعماله بسهولة.

إن المباني التي يشيدها الإنسان تتفاعل بدلاً منه مباشرة مع المناخ الخارجي، ونتيجة لهذا التفاعل يتحدد المناخ الداخلي للمبنى ومن ثم تحديد ما إذا كان تصميم المبنى قد نجح في توفير الراحة الحرارية للإنسان بشكل طبيعي أم أن مناخ المبنى الداخلي لم يحقق الراحة الحرارية المطلوبة، مما يستلزم إيجاد الطاقة لتوفير المناخ الملائم داخل المبنى مثل ما هو حاصل الآن في معظم المباني الحديثة.

وعموماً يمكن القول إن المباني التقليدية المشيدة منذ مئات السنين قد نجحت في توفير الحد الأدنى على الأقل من المناخ الملائم لحياة الإنسان، خصوصاً أن تلك المباني كانت توفر ذلك عن طريق التصميم المتفاعل مع البيئة واستخدام مواد البناء المناسبة. ومما يؤكِّد قدرتها على توفير الحد الكافي من الراحة الحرارية، استمرارية الإنسان على العيش فيها كل هذه القرون، بالإضافة إلى ميزة أخرى تعد مهمة جداً في وقتنا الحاضر، وهي أن تلك المباني توفر المناخ الملائم للإنسان دون استهلاك أو إهدار للطاقة خصوصاً بعد أن أثبتت الإحصائيات أن ٦٥٪ من إجمالي الطاقة المنتجة في المملكة تستهلك داخل المباني، في حين أن ٣٥٪ تستهلكها مشروعات القطاعات الصناعية والزراعية والمواصلات. وعند الرغبة في رفع كفاءة المباني التقليدية من الناحية العمرانية فإن الطاقة التي تستهلك بها ستكون أقل بكثير مما يستهلك في مثيلاتها من المباني الحديثة وهذا في حد ذاته مكسب يعد من العوامل المساهمة في ترشيد استهلاك الطاقة.

إن المباني التقليدية تختلف من منطقة إلى أخرى في تصميم فراغاتها وأشكالها ومواد بنائها والمعالجات المناخية المستخدمة وذلك تبعاً لخصائص البيئة المحيطة وخصوصاً مواد البناء المتوافرة، والخصائص المناخية بصورة تؤكد مدى

ملاءمة وتفاعل المباني التقليدية مع الخصائص المناخية في المنطقة الجنوبية. فمن الناحية التخطيطية يلاحظ اختلاف النمط العمراني للمستوطنات التقليدية من منطقة إلى أخرى على حسب الموقع وخصائصه المناخية ومواد البناء المتوافرة، وعلى سبيل المثال يوجد اختلاف في نمط القرى على مستوى أقاليم المنطقة الجنوبية حيث يختلف نمط القرى الواقعة في تهامة عن تلك الواقعة في جبال السراة، ففي تهامة يوجد نمط العشش التي تتلاءم مع البيئة والمناخ الساحلي الذي يستمر طوال العام بدون تغيرات جذرية، بينما يلاحظ في قرى المرتفعات والهضبة الاعتماد في تشكيل نمط القرية على المباني الحجرية والطينية التي تحمي الإنسان من حرارة الشمس وبرد الشتاء ومن الأمطار الغزيرة التي تمتاز بها المناطق المرتفعة عن غيرها.

وفي تهامة نجد أن المنازل في نمط توزيعها وعناصرها متفرقة عن بعضها بصورة تسمح للهواء القادم من البحر بالمرور بينها للتلطيف من شدة الحرارة والرطوبة، أما في المناطق المرتفعة (جبال فيفا - السراة - الهضبة) فتكون المباني متفرقة على هيئة قلاع أو حصون وفي الغالب تكون متدرجة حسب ميول وطبوغرافية الموقع، ومع أن تلك المباني غلب عليها الشكل الدفاعي إلا أنها تعطي ميزة من الناحية المناخية، وهي تعرض الواجهات لأشعة الشمس المباشرة مما يساعد على تدفئة المباني، كما توجد أيضاً بعض القرى التقليدية في السراة والهضبة يتكون نمطها من المباني المتلاصقة أو المتقاربة وبينها أزقة ضيقة مظللة وبعضها مغطاة، ولئن كان قد غلب على نمط تلك المباني النواحي الأمنية إلا أنها تحمي المشاة من أشعة الشمس وخصوصاً في وقت الظهيرة صيفاً عندما تتعامد أشعة الشمس على المنطقة.

أما من الناحية التصميمية فيظهر انعكاس الخصائص المناخية على مستوى تصميم وإنشاء المنزل في أمور عديدة، منها استخدام مادتي الطين والحجر ذات الخواص الجيدة في العزل الحراري في المناطق المرتفعة. وزيادة سماكة الحوائط الخارجية مما يساعد على حفظ الطاقة الحرارية داخل المنزل شتاء وحفظ البرودة صيفاً. ثم التحكم في عدد النوافذ ومساحاتها التي تطل مباشرة على خارج المبنى، بالإضافة إلى استخدام مادة الخشب الجيدة العزل لإغلاقها عند الحاجة، كما أن النوافذ غائرة في الحائط مما يعطي إمكانية تظليلها. يضاف إلى ذلك استخدام الألوان الداكنة في واجهات

المباني بـالمناطق المرتفعة، وهـذه الألوان تساعد علـى امتصاص الأشعة الساقطة بنسبة كبيرة مما يؤدي إلى زيادة تدفئة المباني خصوصاً في فـصل الشتاء. كما يظهـر في واجهـات المباني الـطينيـة الخارجية استخدام الرقف حيث يركب بين مداميك الطين بشـكل مائل إلى الأسفـل وذلك لحماية الحائط الطيني من هطول الأمطار والبَرَد (قطع الثلج)، وهذه المعالجة المناخية أصبحت تشكل نمطاً مميزاً للمباني التقليدية بالسراة والهضبة.

هذا بالإضافة إلى طريقة بناء العشة عالية مرتفعة بشكل مخروطي وتوجيهها للغرب لاستقبال النسيم البحري، ووضع المطبخ في الناحية الشرقية والجنوبية مـن مخطط المبـنى ليتلاءم مع اتجاه الرياح. مع الاستفادة من استخدام الأحجار في منطقة الأصـدار وفي جبال فيفا خاصة كمادة بناء عازلة إضافة إلى كثـرة وجود الأسطح الدائرية التي تساعد على تحمل شدة الرياح لإن تأثير قوة الرياح يضعف مع الأشكال الدائرية، وبالتالي يقل تأثيرها في المبنى.

هـذا ويوجـد فـي بعـض المـنازل الحجرية، خصوصاً الكبيرة منها، مكانان لصالة المعيشة، أحدهما يستخدم في فصل الصيف، وصالـة الصيف تكون مقابلـة للشرق وتهويتها كبيرة وتسمى العريش، بينما تكون الأخرى قليلة الفتحات ومقابلة غالبـاً للشمال الغـربي وتستخـدم شتاء للتخفيف من شدة البرودة.

وتلعب المياه والغطاء النباتي دورا مهما في تحديد النمـط العمراني. وقد أمكن التعرف على مصادر المياه من خلال تتبع مناطق التجمعات السكانية التي تستعمل كميـات كبيرة مـن الماء حيث وجـد أن المصدرين الرئيـسيين للمياه هما سقـوط الأمطار، التي يستفاد منها في المصاطب الزراعية الواقعة على سلسلة الجبال والتلال في المنطقة. وميـاه الوديان، وتنتج هذه المياه من اختزان مياه السيول التي تتدفق في الآبار من تحـت سطح الأرض، أما في السهول الساحلية فتأتي المياه غالباً من التدفق الفيضي فوق سطح الأرض.

ويظـهر الاهتمـام بالمياه كـمصدر رئيسي للحياة على مستوى المستوطنات بصفة عـامة، فيلاحظ ضرورة اختـيار موقع إنـشاء العمران (سواء كـان قرى ريفية أو مضارب بدو رحل) على مقربة من مصادر المياه، وذلك في حدود المسافة التي تستـطيع المرأة قطعها حاملـة قربة الماء (ما بين ٥٠٠م إلى ١٠٠٠م تقريباً). وفي بعض الأحيان يـلجأ السكان إلى حفر بئر داخل القرية، ومثل هذه الآبار

لها فائدة كبيرة أثناء الحروب والحصار، كما يقوم السكان أحياناً بحفر بئر أو ركية في أقرب مكان ملائم من القرية، ويهتم أهالي القرية كثيراً بمصادر المياه وتفرض الحماية القوية عليها لصيانتها من العبث. وتظهر أهمية مصادر المياه وعلاقتها القوية بالتكوين العمراني للقرية من خلال الممرات التي يسلكها السكان بين القرية ومصدر المياه.

أما الغطاء النباتي فالمنطقة الجنوبية خصوصاً المناطق الجبلية تعد أفضل المناطق على مستوى المملكة بوجود الغابات والغطاء النباتي، ويظهر تأثير ذلك في جذب المصطافين إلى المنطقة. كما يوجد بالمنطقة عدد مختلف من المجموعات النباتية تتوزع حسب الأحوال المناخية وطبيعة الأرض وخصائص التربة. فالمنطقة تتكون بصفة عامة من الجبال والسهول والتلال الصخرية، وأغلب أنواع التربة هي التربة الصحراوية، إضافة إلى التربة الصالحة للزراعة والموجودة على أطراف الوديان وبعض السهول، ويلاحظ أن المجموعات النباتية تتوزع حسب تلك المناطق، فيكثر نمو الأشجار الكثيفة في المناطق الغزيرة الأمطار بينما توجد الشجيرات والحشائش في المناطق الأقل مطراً.

يعد شجر العرعر أهم أشجار المنطقة على الإطلاق، ومن أهم الأخشاب التي تستخدم في بناء المساكن حيث تصنع منها الدعائم، والأبواب، والشبابيك، وتستخدم في التسقيف. كما أن شجر العرعر يعد مصدراً جيداً للوقود. وتوجد في المنطقة أشجار الطلح (السنط) والأثل والزيتون البري (العتم) وشجيرات السباط وأعشاب الثيل ونبات الثمام والمرخ، والحقيقة أن هناك كثيراً من الأشجار والنباتات التي تنمو في المنطقة ويصعب حصرها.

إن الغطاء النباتي والأشجار الكثيفة التي تشتهر بها المنطقة لم تكن لتستمر بهذه الكثافة في المنطقة لولا تطبيق القوانين المتعارف عليها بين القبائل ومن أهم هذه القوانين حظر قطع الأشجار سواء كانت خضراء أو يابسة من أراضي القبيلة الأخرى، كما يحظر قطع الأشجار على مستوى أرض القبيلة إلا ما كان ضرورياً كحطب للوقود أو إنشاء المباني فيسمح بذلك، ولكن بشرط أن يقطع من المناطق النائية ولا يقترب من الأشجار القريبة من القرى، ومن يخالف تلك القوانين تطبق عليه جزاءات رادعة كتغريمه مبلغاً من المال يقدره أهل الخبرة في القرية، أو يغرم بالذبح من حلاله (الأبقار، الأغنام،

الجمـال) ما يعـادل ذلك الجزاء ويـقدم الذبيحة لأهل القرية.

المحددات البشرية: تـتمثل العوامل البشريـة في القيم الدينـية والاجتماعية والمؤثرات الاقتصـادية والثقافية والتقنـية والأمنية، فـكلها ذات تأثيـر مباشر في طبيعة العمران وأنماطه.

يظهـر أثر القيم الديـنية في سلوك الإنسان والبيئة الـتقليدية في المنطقة في الاهتـمام بموقع المـسجد في الـقرية لما لوظـيفتـه من أثر عـميق في المجـتمع الإسلامي، بـالإضافة إلى كـونه مكاناً للتعليم، كما يعد المسجد أيضاً بمثابة مكان لاجتماع أفراد المجتمع حيث تناقش فيه الأمور المهمة، كما أن الانتقال إليه خمس مرات في اليوم والليلة يقوي من العلاقات الاجتماعية ويزيد الترابط.

ومن خلال تتبع النمط العمراني في المنـطقة لوحـظ أن المسجـد يأخذ أحد موقـعين في القـرية؛ إما أن يكـون في وسطها وتتشكل حوله الفراغات الرئيسية التي يتم فيها الالتقاء أو ممارسة الأنشطة الأخرى كالحفلات في الأعـياد والزواج كما في قرية المخض بمنطقة السراة. وإما أن يكون على أطراف المستوطنة وذا علاقة مباشرة بالسكن وبالمزارع، وتتضح هـذه العلاقة في الطرق التي تربط بين المساكن والمسجد من جهة وبين المسجـد والمزارع من جـهة أخرى، إذ إن غالـبية سكـان المستوطنة يعملون بـالزراعة منذ الصباح وحتى المساء لهذا يبنى المسجد قريباً من المزارع ليتمكن العاملون بالمزارع من أداء فريضتـي الظهر والعصـر مع الجماعة، ويمكن ملاحظة ذلك في قرية آل الخلف.

ويظهـر أثر القيم الديـنية أيضاً فـي العلاقـات بين أفراد القـرية ككل وبـين الجيران، فلا يضر أحد جاره ببناء منزله ولا يكشف خصوصيته، ويلاحظ ذلك في عدم تقابل أبواب منازل القرية، وفي تصميم فراغات المنزل وتوزيعها الداخلي بصورة تـضمن الخصـوصية لسـاكنيه، فيلاحـظ مثلاً أن تصـميم المسـكن في المرتفعات يعتمد على توزيع الاستخدامات على الأدوار فتزيد الخصوصية في الأدوار العليا حيث تكون للـعائلة، بينما يكون الدور الأول لاستقبال الضيوف، أما الدور السفلي فيخصص للمواشي وللتخزين. وربما يقـال إن هناك جرحـاً لخصوصية الجوار من نوافذ المنـازل القريبة، إضافة إلى الاخـتلاط في بعـض الأحيان بين الرجال والنساء في المساكن والمزارع، وهنا نوضح أن الخصوصية لا تُجرح، بل لقد كـان الجار، وهـو غالـباً مـن الأقارب (اللحمة)، شديد الحـرص والغيرة على

محارم العائلة بصفة خاصة، وعلى محارم القرية بصفة عامة، إضافة إلى أن المرأة في منطقة عسير بصفة عامة كانت مهيأة في أي وقت وفي أي مكان (المنزل، المزرعة، الرعي) لمشاهدة الرجال الأجانب الذين يكونون في الغالب من أبناء عشيرتها وتجمعها معهم ظروف العمل والمعيشة وهي مهيأة بحجابها وملابسها الفضفاضة التي تغطي جميع جسدها ما عدا وجهها وكفيها لضرورة العمل ومشاركة الرجل معظم أعماله. أما في المناطق الساحلية فيلاحظ أنه يتم تحقيق الخصوصية للعائلة بإنشاء عشة للضيوف والمعيشة بينما تخصص أخرى للعائلة.

وبالإضافة إلى تشريعات الدين الإسلامي الذي ينظم نواحي الحياة فإن هناك عادات وتقاليد متوارثة من قبل مجيء الإسلام، منها ما أقره الإسلام كإكرام الضيف والوفاء بالعهد، ومنها ما أنكره مثل السلب والنهب والتفرقة العنصرية.

ويغلب على المنطقة الجنوبية من المملكة النظام القبلي، ولهذا تسود فيها العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية كغيرها من القبائل العربية، فكانت تمارس العادات على شكل معين من أشكال التنظيم وتحكمها قوانين غير مكتوبة، كما أن العادات والتقاليد والأعراف تعد مصدراً للحقوق والمنهيات وقوة ذات أثر ملحوظ على الرغم من أنه لا يوجد موظفون قد اختيروا لفرضها بقوة على من يوقع به الجزاء من المخالفين لها.

فالعرف مثلاً هو أحد هذه القوانين غير المكتوبة ويعتبر سلطة من سلطات المجتمع تشمل المعتقدات التي تسري بين الناس وخاصة بين العامة منهم، وهم يشعرون أن هذه المعتقدات ملزمة لهم وعليهم الأخذ بها. والعرف عبارة عن منظومة من الأفكار والآراء والمعتقدات التي تنشأ في جو الجماعة، وتنعكس على أنماط سلوكهم اليومية، ويخضع الأفراد لهذه المعتقدات لأنها تستمد قوتها من فكر الجماعة وعقائدها فلا يملكون الخروج على ما ترسمه إلا في أضيق الحدود.

وأما العادة الاجتماعية فهي ظاهرة اجتماعية تتعلق بأفعال الناس ويعزى وجودها إلى الفطرة الاجتماعية، والعادات تصدر عن غريزة اجتماعية فهي تلقائية لا تصدر عن سلطة معينة وإنما دعامتها قبول الناس لها، مثل حماية المرأة بشتى صور الحماية، وتتمثل هذه الحماية مثلاً في الدفاع عنها إذا استغاثت حتى لو لم يكن المستغاث به يعرفها.

وبالإضافة إلى العادات والأعراف الاجتماعية فإن هناك علاقات اجتماعية تبدأ من علاقة الفرد مع أسرته وتمتد إلى علاقة الفرد مع بقية أفراد القبيلة.

ومن هنا يمكن تلخيص أهم القيم الاجتماعية المؤثرة في سلوك الإنسان والبيئة العمرانية التقليدية في المنطقة في قيام القرى قديماً في مناطق متفرقة، وقلة وجود التجمعات الكبيرة (المدن) لأن كل قبيلة تقيم مساكنها داخل حدود ديرتها، ويحظر على الفرد أو الجماعة بناء مساكنهم في منطقة القبائل الأخرى، وهذا ما تلاحظ آثاره حتى وقتنا الحالي إذ صدرت أوامر سامية تمنع استيطان القبيلة بشكل جماعي في أراضي قبيلة أخرى. ويلاحظ غالباً أن أكبر قرى القبيلة هي قرية الشيخ وهذا يعبر عن المركز المهم لشيخ القبيلة ولسلطته، ويكون فيها السوق الأسبوعي ومسجد الجمعة.

وتتفرق القرى داخل حدود منطقة القبيلة حيث يمكن أن تقام قرى على حسب تصنيف طبقات القبيلة، فيمكن أن تشاهد قرى على مستوى الفرع (البطن) من القبيلة، وأخرى على مستوى الفخذ، وثالثة على مستوى اللحمة (العشيرة)، كما يمكن أن تشاهد على مستوى العائلة والتي تتمثل في المنازل المجاورة للمزارع الخاصة. ويلاحظ تأثير العادات والتقاليد في تصميم المنزل، الذي يظهر في الاهتمام بقسم الضيوف فقد يخصص أحد أدوار المنزل لهم للوفاء بعادة الكرم المتأصلة في صاحب المنزل.

كما يظهر تجانس أهل القرية بصفة عامة وتعاونهم في بناء المساكن وتعاون النساء خصوصاً الجارات في لياسة المنزل وعمل النقوش الملونة على الحوائط الداخلية للمنزل، وهذا أوجد التشابه الكبير بين المساكن، وعكس التشابه في سلوك ساكنيها.

ومن ذلك أيضاً احترام حقوق الارتفاق العامة، ومنها عدم قطع أو تضييق الممرات التي تربط المسكن بالمزارع وتسمى عند بعض القبائل عاده سبيل أي أن هذا الممر الذي تعود صاحب المزرعة المرور فيه أصبح عادة مشروعة له ولأصحاب المزارع الآخرين الذين يستخدمون هذا الممر ولهذا تلاحظ حتى وقتنا الحالي استمرارية الارتباط الوثيق بين المزارع والمساكن.

ويلاحظ أيضاً وجود ميدان كبير داخل القرى أو على أطرافها لإقامة الحفلات؛ إذ جرت العادة أن تستقبل فيه الضيوف أو تقام حفلات على مستوى القرية (الفخذ) للمناسبات الكبيرة ومنها

حفلات الزواج، والسماوة، واستقبال ضيف كبير غاب عن المنطقة كثيراً، وتتم هذه الاحتفالات في الميدان الكبير داخل القرية أو على أطرافها وغالباً في مكان السوق الأسبوعي، وفي هذه الحالة يشترط ألا يكون موعد الاحتفال موافقاً لليوم الذي يقام فيه السوق. وفي يوم الاحتفال يتم استقبال الضيوف المتزينين بأفضل ما لديهم من لباس وسلاح ويأتون على هيئة دقلة (عرضة) ويكون الاستقبال باصطفاف أهل القرية أمامهم للترحيب بهم ويتبادلون إطلاق الأعيرة النارية، ويكون السلام على هيئة قصيدة يلقيها شاعر الضيوف ومن ثم يرد عليه شاعر المستقبلين بالترحيب، وبعد الحفل يتم غالباً توزيع الضيوف على لحام القرية حسب قوانين يتفق عليها تحت اسم النوبة. ويقوم شبان القرية بخدمة الضيوف وتجهيز الذبائح وتقديم القهوة وغيرها، وفي هذه العادة تظهر روح التعاون والألفة والمشاركة مع أصحاب الحفلة. أما في عصرنا الحاضر ومع زيادة العمران والتمدن واتباع الأنماط الحديثة في التخطيط، فقد أهمل هذا الجانب، ومع ندرة وجود هذه الميادين في المخططات الحديثة أصبح الناس يلجأون إلى قصور الأفراح التي تكلفهم أموالاً كثيرة، كما اختفت روح الاجتماع والتعاون والمشاركة.

ومن العادات الجيدة التي تسود القرى عادة القيام بنظافة القرية، وتعد هذه المهمة مسؤولية الجميع وليست نظاماً بل جرت العادة أن تقوم ربة كل بيت بتنظيف المساحة الواقعة أمام بيتها (الساحة)، والمرأة التي لا تقوم بهذا العمل بشكل جيد يعيرها جيرانها والزوار كما يعيرون زوجها، ولهذا تجد أهل البيت حريصين كل الحرص على إظهار مدخل منزلهم بشكل مشرف. ويتضح الاهتمام بالنظافة بشكل أوضح أيام المناسبات والأعياد، وتقوم النساء بهذا العمل خصوصاً يومي العيد (الفطر والأضحى) حيث تستغل المرأة وقت ذهاب الرجال إلى صلاة العيد للتنظيف، وعند رجوع أهالي القرية من صلاة العيد يجدون قريتهم في أزهى صورها.

ويظهر العمران التقليدي بالمنطقة احترام حقوق الجار التي أوصى بها الرسول ﷺ ويظهر ذلك في أن الجار يحرص على حرمة بيت جاره، والغيرة على محارمه، وعدم الدخول إلى المنزل إلا من المداخل الرئيسية رغم وجود فتحات أخرى، كما يظهر ذلك أيضاً حتى على مستوى بيوت الشعر فلا يمكن لأحد

أن يدخل من مقفَّى البيت رغم أن بيت الشعر مفتوح من كل الجهات. كما يحرص على أملاك الجار المتعارف عليها ومساعدته في معظم الأعمال الصعبة جسدياً وعينياً ومن ذلك المساعدة في البناء، حيث يحرص أهل القرية على المساهمة في مساعدة صاحب المنزل وخصوصاً الجار سواء كان ذلك لمساعدته في العمل أو تقديم بعض الوجبات الغذائية أو بعض الأخشاب أو السماح له بأخذ مادة الطين من مزرعته.

ويحرصون أيضاً على احترام حدود الملكية المتعارف عليها، ففي الماضي وقبل ظهور الدوائر الحكومية، كانت جميع المنازل والمزارع بدون صكوك أو وثائق إلا ما ندر، ويوجد كثير منها إلى وقتنا الحالي، ومع ذلك فلا مشاكل على الأراضي المملوكة، لأن حدود الملكيات متعارف عليها، ويستحيل أن يتجرأ أحد بالاعتداء عليها لكون أهل القرية سيقومون إلى جانب صاحب الملك ضد المعتدي، ومن دراسة ملكية الأرض وجد أنها تتدرج بتدرج طبقات القبيلة؛ فهناك ملكيات على مستوى القبيلة تتمثل في حدود ديرة القبيلة، وهذه الحدود يتفق عليها مع القبائل المجاورة، وفي حالة الاعتداء من قبيلة على حدود الأخرى تقوم حرب ضروس، ولازالت آثار ذلك ظاهرة بين القبائل حتى وقتنا الحالي حيث الشكاوى والمشكلات التي تحصل بين القبائل رغم أن الدولة حريصة على التحكم في ذلك وحل مثل هذه الأمور.

وتتدرج الملكية داخل حدود ديرة القبيلة لتشمل الملكية على مستوى الفرع والفخذ، وهذه الملكية لا تكون واضحة الحدود كتلك الفاصلة بين قبيلة وأخرى وإنما يتفق بين أفرع القبيلة وفخوذها بأن لكل فرع أو فخذ جهة معينة لها الحق في مراعيها والاحتطاب منها والحصول على الأخشاب ومواد البناء اللازمة منها. وتبدأ الملكية على مستوى اللحمة والأسرة في الوضوح التام وذلك بحدود ومعالم ثابتة منها النصائص وهي حجارة تغرس في الأرض على اتجاه معين يحد الملكية، ومنها ثمايل البلاد كما يطلق عليها عند بعض القبائل وهي الحوائط الحجرية التي تحدد الملك وتكون المصاطب الزراعية، كما تظهر الملكيات الصغيرة على مستوى الأسرة سواء كان ذلك في الأراضي المخصصة للبناء أو الزراعة، وتتداخل مواقع الأملاك بعضها مع بعض، كما أن ملكية الأرض تظهر في صورة قطع مختلفة الأشكال، والمساحات مختلفة التوجيه، الأمر الذي أعطى التكوين

العمراني التقليدي في المنطقة خصائصه العضوية المميزة.

وعند الحديث عن المحددات البشرية المؤثرة على أنماط العمارة ينبغي لنا أن لا نغفل المؤثرات الاقتصادية. ففي المنطقة الجنوبية يلاحظ أن معظم القرى تعتمد على الزراعة كمصدر للحياة، وبذلك تكونت العلاقة القوية فيما بين المزارع والمساكن وشكلت علاقة الأفراد بالأرض عاملاً مهماً في وصف حياتهم الاقتصادية، وتحديد صورة البناء الاجتماعي والعلاقات المتبادلة بينهم، فيلاحظ أن الإنسان والأرض والحيوان وحدة واحدة وتبادل العلاقات بينهم على صورة تربطهم بشدة، فالأرض بالنسبة للإنسان هي مكان العمل المطلوب، والحيوان هو شريك الإنسان ومعاونه في استغلال الأرض.

وبدراسة تأثير العلاقة بين الإنسان والأرض في بناء القرى نصل إلى أنّ اختيار المواقع القريبة من الأراضي الزراعية والمياه لبناء القرى عليها، كما يظهر الارتباط المباشر بين المسكن والمزرعة حيث تكون المنازل منتشرة حسب وجود المزارع كما في جبال فيفا. وكذلك العلاقة القوية بين القرى والمزارع والمتمثلة في الشوارع والأزقة التي تربط المساكن بالمزارع بصورة مباشرة. ثم وجود القرى في أعالي الجبال، وقد أملت مواقعها اعتبارات دفاعية في المقام الأول ثم الرغبة في الحفاظ على الأراضي القليلة في الوديان لأغراض الإنتاج الزراعي، ويلاحظ هذا في عدم الاعتداء على المزارع وعدم البناء فيها إلا عند الضرورة القصوى، ومحاولة الإنسان توسيع الرقعة الزراعية بعمل المصاطب على سطوح الجبال وزراعتها وريها بمياه الأمطار.

إن متطلبات حفظ الموارد الشحيحة المتمثلة في المزارع وقلة المساحات المستوية والاعتبارات الأمنية في المرتفعات أبرزت الحاجة إلى التوسع في البناء رأسياً بدلاً من التوسع أفقياً مما أتاح فرص الإيواء في بناء واحد لعدد من أعضاء الأسرة الممتدة. بالإضافة إلى عمل معظم سكان القرى قديماً بالزراعة فإن البعض الآخر يقوم برعي وتربية المواشي كالأغنام والأبقار وبعض الإبل التي تعد المصدر الثاني بعد الزراعة لمعظم القرى بالمنطقة قبل الانخراط في الوظائف الحكومية والتجارة. ويلاحظ تأثير مهنة الرعي أيضاً في نمط القرى التقليدية فنلاحظ أن بعض القرى ترتبط بالزراعة من جهة وبالمراعي من الجهة الأخرى.

أما التجارة فكانت معظم القرى تتمتع بنوع من الاقتصاد الذاتي والفائض يتم تصريفه عن طريق البيع أو المقايضة مقابل ما يحتاج إليه من مستلزمات الحياة. كما توجد الأسواق الأسبوعية التي تسمى باسم اليوم الذي تعقد فيه مثل سوق الأحد وسوق الأثنين، ونتيجة لشهرة الأسواق فقد اطلقت أسماؤها المأخوذة من أيام الأسبوع على القرى التي تقام فيها مثل أحد رفيدة، سبت العلاية وغيرها. وكانت الأسواق تقام غالباً خارج التجمعات السكانية أو ملاصقة لها وذلك لأسباب أمنية، كما أن الأسواق كانت تشكل نظاماً اجتماعياً وقبلياً قائماً بذاته. فيلاحظ مثلاً أن تلك الأسواق لا تقام إلا في قرى يستطيع سكانها حمايتها وحماية روادها لمدة ثلاثة أيام يوماً قبل السوق ويوماً بعده. وبالإضافة إلى وظيفة الأسواق التجارية فإن لها وظائف أخرى، فهي تعد منطقة التجمع على مستوى المنطقة ففيها يتم التقاء أفراد القبائل للتشاور وتناقل الأخبار، كما يتم فيها النصح والأرشاد والتعزير لمن ارتكب خطيئة.

وقد أثرت الأسواق الأسبوعية في القرى الواقعة بها، فجعلتها تنمو أكثر من غيرها كما جعلت لأصحابها مركزاً اجتماعياً مميزاً، ويلاحظ أن القرى التي بها هذه الأسواق كان لها الأسبقية في وصول الخدمات والمرافق في عصرنا الحاضر مما زاد من تطورها، مع أن هذا قد أثر من جهة أخرى في طابعها العمراني حيث نجد المناطق التقليدية بها قد أهملت على الأقل إن لم تكن قد تعرضت للإزالة من تلك القرى.

ولا ننسى أن المنطقة الجنوبية تقع قريبا من اليمن التي كانت لها حضارة عظيمة انعكس تأثيرها في نمط تخطيط القرى وفي طريقة البناء وارتفاع المباني، وهذا التأثير يبدو واضحاً في القرى القريبة من الحدود اليمنية حالياً خصوصاً في المرتفعات. كما أن المناطق الساحلية قد تأثرت بالحضارات الأفريقية والتي تتضح في طريقة تصميم المساكن (العشش) المشابهة لتلك الواقعة في شرقي أفريقيا.

كذلك أثر الأتراك في العمارة المحلية عندما امتد نفوذهم إلى المنطقة، ويظهر ذلك في القلاع المنتشرة في منطقة جازان، كما توجد بعض المباني في جزيرة فرسان قد تأثرت بالطابع المعماري التركي المتمثل في استخدام القباب والأقواس.

أما الحضارة والثقافة المحلية فإنها غالباً شبه متساوية على مستوى المنطقة يلاحظ ذلك من خلال التشابه في مستوى التعليم المنخفض والمرجعية

الثقافية. ومن هنا ظهر التشابه في تصاميم المنازل واللمسات المعمارية وهذا ينطبق بصفة عامة على المناطق المرتفعة قبل دخول التنمية ووسائل الإعلام إليها في العصر الحديث، وعلى العكس تأتي منطقة جازان التي لها اتصال بالحضارات الأخرى عن طريق البحر الأحمر ويظهر ذلك كما ذكر في تصميم بعض المباني القائمة ذات الطابع المميز والتي تعكس اختلاف مستويات الحضارة والثقافة بين أفراد المنطقة التي نقلت أصلاً من حضارات مختلفة كالحضارة التركية وشرق أفريقيا، واليمن، إضافة إلى أن بعض التجار في المنطقة خصوصاً في جزيرة فرسان استطاعوا أن يجلبوا العمالة من دول مختلفة كالهند وتركيا ويظهر أثر ذلك في طابع المباني في الجزيرة.

هذا عدا تفاعل الإنسان مع البيئة الطبيعية التي تحيط به في طريقة إنشاء المساكن في المنطقة، حيث يسهم التكوين الجيولوجي لتربة البيئة في تطوير طرق التشييد، فمن هذه التربة ومن منتجاتها استطاع الإنسان أن يستخرج المواد اللازمة لتنفيذ مبانيه، فمواد البناء محلية ومن البيئة المحيطة، وتقنية البناء تعتمد على البنائين المهرة وغالباً يكونون من القرية ذاتها أو من بيئة مشابهة لبيئة القرية.

والحقيقة أن مواد البناء وتقسيمها وطريقة إنشاء المساكن تعد من أهم العوامل التي تحدد معالم المساكن وطابعها والتكوين العمراني بصفة عامة، فمن تتبع تقنية البناء في المنطقة الجنوبية ومواد البناء المستخدمة يلاحظ أن هناك ثلاثة أنواع رئيسية من المباني؛ أولها البيوت النباتية أو ما يعرف بالعشش. ويعتمد في إنشاء الهيكل الأساسي لهذا النوع من المباني على فروع الأشجار والحشائش إضافة إلى مادة الطين التي تطلى بها العشة من الداخل وبعض أجزائها من الخارج. وتنتشر العشش في سواحل تهامة وتظهر تقنية إنشائها في التحكم في إظهار العشة بشكلها الهندسي المميز والذي يتكون من مسقط دائري إضافة إلى شكلها الخارجي المخروطي أو القبابي، ولا يستطيع إظهار مثل هذه الأشكال إلا من يكون لديه مهارة جيدة في البناء والقياس. ثم التقنية في تصميم العشة بحيث يكون سقفها مرتفعاً مما يبقي أماكن الجلوس باردة داخل العشة. إضافة إلى استخدام مواد ملائمة لمناخ المنطقة كاستخدام المواد الرديئة التوصيل للحرارة كالطين والنباتات. والاستفادة من توجيه الفتحات لاستقبال التيارات الهوائية والسماح بمرورها داخل المسكن. بالإضافة إلى التقنية في استخدام الأدوات والأواني

عشة قد اكتمل بناؤها وتظهر القرعينة فوق قمة العشة

المنزلية ومواد البـناء المحلية في التصميم الداخلي للعشة والذي أبدعت فيه أيادي ربات البيوت. فتلاحظ الزخرفة والنقوش الدقيـقة داخل العشـة، وتوزيع الأواني وبعض المقـتنيات المحلية بطـريقة تشرح نفس الداخل إلى العشة.

والنوع الثاني البيوت الحجرية، وتقام غالبـاً في الأراضي المرتفعـة وخصوصاً المناطق التي تكثر فيها المصاطب الزراعية وذلك لتوافر مادة البناء الرئيسية (الحجر) التي تجلب من الجبال القريبة بعد أن يقوم أشخاص متخصصون بتهذيبها، وتظـهر تقنية البـناء في البيوت الحجرية في فـن تهذيب الأحجار لتكون بمقاسات مناسبة للمكان الذي توضع فيه، فيلاحظ مثلاً وضع الأحجار الطويلة في الزوايا بطريقة هندسية تضمن سلامة الإنشاء، كما يهتم البنَّاء بـوضع الأحجار المهذبة جيـداً في واجهة المبنى لإظهاره بشكل جميل. كما تظهر في إمكانـية الارتفاع ببناء المسكن لأكثر من ثلاثة أدوار معتمدين في ذلك على الحوائـط الحاملة، حيث يتم رص الأحجار (الحيود) على هيئة عقود وتملأ الفراغات بين الحجارة المتراصة برقائق من الصخور الصغـيرة، فيما يعرف بعمليـة التكحيل، بالإضافة إلى مادة الطين التي تـستـخدم بـعض الأحـيان مـونةً بـين الأحجار.

حصن مبني من الحجارة الخالصة من عدة طوابق

ويجتهد البناؤون في وزن البناء بمادة الحجر بأشكال دائرية كما في جبال فيفا، أو بشكل مائل كما في جبال السروات، حيث يبدأ الحائط بسماكة كبيرة في الأساس ثم يصغر تدريجياً إلى أن يصل إلى أعلى المبنى وهذا يزيد من قوة التحكم في الإنشاء كما يظهر طابعاً مميزاً للمبنى.

تكحيل الحجارة

ويتحكمون في مساحة النوافذ الخارجية وعددها واستخدام مادة الخشب الجيدة العزل لإغلاقها وقت الحاجة خصوصاً في فترة زيادة البرودة، كما توضع النوافذ غائرة في الحائط مما يعطي إمكانية تظليلها.

ثم الإبداع في إظهار المبنى من الداخل بالألوان والنقوش التي تنفذها ربات البيوت، إضافة إلى النقوش الخارجية على بعض نوافذ المنزل والتي تزين باستخدام حجر المرو ذي اللون الأبيض الناصع.

أما النوع الثالث فهو البيوت الطينية، وتقام على ضفاف الأودية وفي السهول التي تكثر فيها طفلة الطين. ويكثر انتشارها كلما اتجهنا ناحية الشرق، ويعتمد في تشييد هذه المباني على مادة الطين

بيوت ظهران الجنوب ذات الأربعة وخمسة طوابق والمبنية من الطين

كمادة رئيسية حيث تقام منها الحوائط الحاملة للمبنى. وتظهر تقنية البناء بالطين في براعة البنائين المحليين في استخدام مادة الطين لإنشاء المباني ذات الأربعة والخمسة طوابق والمنتشرة في المنطقة كالمنازل والقلاع وأبراج المراقبة، وجميعها تقف شامخة كشاهد عيان لوصول أولئك البنائين إلى أعلى مستوى في تقنية البناء بالطين قياساً على محدودية الإمكانيات وندرة الاحتكاك بالخبرات الخارجية في ذلك الوقت. وكذلك تنوع طرق تشييد المباني التي تدخل فيها مادة الطين كمادة رئيسية في البناء على ثلاثة أنواع؛ هي البناء بالطين الخالص بطريقة المداميك. والبناء بالطين مع استخدام الرقف حماية للحائط من الأمطار والبَرَد (الثلج). والبناء بالحجر لارتفاع حوالي ثلاثة أمتار ومن ثم استكمال المبنى بمادة الطين الخالص أو الطين مع الرقف. وتستخدم كل طريقة حسب موقع المبنى والخصائص المناخية وتوفر مادة البناء.

تعدد الطوابق في بيوت الطين في قرية الطلحة شمال ظهران الجنوب

ويظهر التحكم في بناء الحوائط بشكل مائل يميز طابع البناء وذلك بزيادة سمك الحائط عند الأساس ومن ثم تقل السماكة كلما ارتفع البناء. واستغلال المواد المحلية والنقوش الملونة بمهارة في إخـراج المبنى بشكل جمالي ثم المعالجات المناخية الجيدة المتمثلة في مواد البناء (الطين، الخشب) إضافة إلى سماكة الحوائط وصغر فتحات النوافذ وغيرها مما سبق استعراضه. يضاف إلى ذلك الـتقنية في تـقوية مادة الطين وزيادة تماسكها وذلك بـخلط مادة التبن معها بنسبة معينة.

وهناك نوع رابع من البناء يخص أهل البوادي هو بيوت الشعر التي تنتشر فـي المنطقة بصفة عامة ما عدا تهامة، إلا أنها تزيد في المناطق الممتدة بين خميس مشيط وبيشة التي تقطنها القبائل البدوية، حيث يكثر تنقل البـدو بحثاً عن الماء والكلأ. وتظهر تقنية بيوت الشعر في تمكن البدوي من صنـاعة بيته بـنفسه وبما يتـلاءم مع احتياجاته، حيث تقوم المرأة بغزل الشعر المأخوذ غالباً من الماعز، ومن ثم يتم نسج البيت وفقاً للحجم المطلوب. ويستخدم في ذلك شعر المـاعز كمادة أساسية في صناعة بيت الشعر وهو الأمتن والأنسب لأن نسـيجـه يتقـلص عـندما يـتشبـع بالرطوبة، فتتراص الخيوط، وتمنع تسرب ماء المطر إلى الداخل، ولا يحتفظ الشعر بالماء كما يحتـفظ به الصوف مما يساعد في سرعة انزلاق القـطرات من جوانب البيت، إضـافة إلى أن لون شعر المـاعز الأسود يتحمـل دخان النار التي تشعـل داخل البيت. ومن مزايا بيت الشعر خفّته وسهولة نصبه وفكه وحمله على الدواب كالجمال والحمير، وملاءمته للبيئة المناخية وإمكانية التحـكم في فتحاته وتوجيهها حسب اتجاه الرياح السائدة المرغوب فيها. وسهولة تكبيره أو تصغيره وتقسيمه حسب الحاجة بـعمل القواطـع المستخدمـة في تقسيم الفراغات.

ومن مـحددات الأنمـاط المعـمارية الاعتبارات الأمنية والسياسية. إن الولاء للدين ثم الولاء للعائلة والقبيلة من أهم المميزات التي تلاحظ قديماً في المـنطقة، فمع كثرة تعداد القبائل والصراع المستمر فيما بينها بالإضافة إلى الصراع مع الأعداء القادمين من خارج المنطقة، أدى كل ذلك إلى التفاف الأفراد حول بعضهم والعيش في جماعات متكاتفة تدافع عن أرضـها وتحمـيها، وإن الفـرد الذي يعيـش في جماعة تظهر فـي سلوكه الطمأنينة لأن الجماعة يمكن أن تدفع عنه الخطر وتحميه، فيلاحظ على سبيل المثال أن الفرد الذي يعيش في جماعـة كبيرة يقلل من لبسه

السلاح الذي لابد أن يحتوي على بندقية أو جنبية (نوع من أنواع السلاح الأبيض) وذلك داخل حدود القرية بينما يلاحظ أن الفرد الذي يعيش في جماعة قليلة وفي منطقة نائية متأهب في أي وقت للخطر، ولا يترك لبسه الحربي، وكل ذلك كان يلاحظ قبل استتباب الأمن في العهد السعودي الرشيد.

وأهم الظواهر الناتجة عن التأثيرات الأمنية في البيئة العمرانية التقليدية أن بناء القرية يكون في مواقع ذات خصائص دفاعية حيث يتكتل السكان بشكل وحدات أسرية تقيم في قرى حول الجبال والمرتفعات للاحتماء بها من الأعداء، فالناظر إلى بعض القرى المشادة في الجبال والتلال يشعر بانطباع نفسي يستحوذ على ذهنه وإحساسه، ذلك أن المساكن في تلك القرى يقترب كل منها للآخر بشكل يتراءى للناظر الذي له قدرة التخيل باختفاء تفصيلات المباني وخصوصاً وقت ما قبل الغروب، فتبدو المساكن بمجملها وكأنها قلعة مشيدة مطلة على المزارع والحقول أسفلها.

وتنتشر الأبراج الحربية (الحصون أو القصبات) هنا وهناك بين الأودية الزراعية أو على الروابي المطلة على منازل القرية، وهذه الأبراج تستخدم لأغراض المراقبة والدفاع ولخزن الغلال والحبوب، ويمكن تصنيف هذه الأبراج إلى أبراج (حصون) على مستوى مجموعة من القرى وهذه الأبراج تبنى على المشارف المطلة على هذه القرى وتستغل هذه الأبراج ضد الأعداء القادمين من خارج الديرة. وأبراج (حصون) على مستوى القرية وهي عادة تبنى في أرفع موقع من القرية وتستغل لحماية القرية نفسها ويزيد عدد هذه الأبراج كلما كان موقع القرية منخفضاً كما يلاحظ ذلك في قرية آل الخلف القريبة من سراة عبيده. وأبراج (قصبات) على مستوى اللحمة أو الأسرة وهذه عادة تقع قريبة من المزارع وتستخدم لحماية المزارع ولخزن الغلال. كما يلاحظ أن المنزل عندما يكون منفرداً يظهر وكأنه قلعة حربية للحراسة ويكون موقعه ملاصقاً للمزارع ويظهر ذلك واضحاً في منازل أهالي فيفا.

ومن تأثير النواحي الأمنية في نمط تصميم بعض القرى وجود الممرات المتعرجة والمتحكم في مداخلها، إضافة إلى وجود فتحات في المنازل المطلة على نهايتها يتم رمي الأعداء منها، كما يوجد في بعض الممرات، خصوصاً المغطاة، بعض العوائق التي تنتظر الأعداء داخل هذه الممرات ومنها وجود بعض النتوءات

الحادة من الحجارة أو الخشب يمكن أن يصطدم بها الأعداء لعدم معرفتهم بمواقعها. وبالإضافة إلى تحصين القرية ضد الأعداء فإنه يتم تأمين ضروريات الحياة أيام الحرب وهما الماء والغذاء، فيقوم السكان في بعض القرى خصوصاً الواقعة على أطراف الأودية بحفر بئر أو أكثر داخل القرية أو قريب منها لتأمين الماء وقت الحصار، وقد لوحظ وجود مثل هذه الآبار في كثير من القرى، كما يقوم السكان بتخزين ما يكفيهم من الحبوب في مواقع آمنة للرجوع إليها وقت الحاجة، وهذه المخازن محفورة في الأرض ومحكمة الجوانب والغطاء لحفظ الحبوب فترة طويلة من الرطوبة والتسوس، ويراعى أن تكون مواقع هذه المخازن سرية ويسهل الوصول إليها من الجُرُن التي تصفى بها الحبوب بعد الحصاد.

والمنزل بكامله سواء كان داخل قرية أو منفرداً يبدو وكأنه قلعة حربية، فتكثر الفتحات الواقعة في الأجزاء العلوية من المبنى لرمي الأعداء منها، كما يوجد في بعض المنازل خصوصاً منازل الأعيان مثل منزل ابن مشيط بمدينة الخميس فتحات تطل مباشرة على المدخل الرئيسي للمنزل تستخدم أيضاً للرمي، والفتحات تطل على كل الاتجاهات ولها تصميم خاص، ليست مباشرة وإنما تكون بزوايا مختلفة ومائلة بحيث إن الأعداء لو صوبوا أعيرة سلاحهم نحوها فإن التصويب يندر أن يأخذ الاتجاه المباشر للفتحة، وبذلك يكون المقاتل وراء هذه الفتحات في أمان. ويظهر في بعض واجهات المساكن الحجرية (المردي) الذي سبق ذكره، وهو تجويف في الحائط من أعلى المبنى إلى أسفله، وهذا التجويف يكون فوق مدخل المنزل أو البرج ويستخدم لإلقاء الحجارة الكبيرة من أعلى المبنى على رؤوس الأعداء الذين يريدون اقتحام المبنى.